من شواهد التعقيد اللفظى
فـــى ديـــوان المتـــــــنبى

د / رفعت على محمد
مدرس البلاغة والنقد

مقدمـــــة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان ...

وبعـــد

فلاشك أن المتنبى يحتل مقدمة أصحاب الشواهد الشعرية فى البلاغة العربية وطليعة الشـــعراء الـــذين شيد على أسلوبهم عمود الشعر فهو الشاعر الذى نال من عناية الأدباء والنقاد وبحثهم وجدلهم ما الم ينله شاعر قبله ولا بعده وألفت فيه كتب كثيرة فى كل ناحية من نواحى شخصيته وشعره .

ونظرة سريعة إلى عدد الشواهد الشعرية التى استشهد بها علماء البلاغة من ديوان المتنبى تنبئ عن مكانه أبى الطيب المتنبى ومنزلته المتفردة بين شعراء العربيـــة.

فقـــد استشهد " الخفاجى " بشعره فى " سر الفصاحة " (اثنتين وخمسين مـــرة) واستشـــهد به الإمام " عبد القاهر " فى " أسرار البلاغة " إحدى وأربعين مرة " وفى دلائل الإعجـــاز " ثلاثـــا وســـتين مرة واستشهد بشعره " القرطاجنى " فى منهاج البلغاء " تسعة وعشرين مرة " .

ومـــع ذلـــك فان شعره قد حمل آثار الخصومة حول شخصه وقد كانت شخصية مـــلأت الدنيا وشغلت الناس فانقسم الناس فيه بين مبالغ فى مدحه ومفرط فى ذمه فوجه إلى كـــثير مـــن شعره وشواهده سهام النقد والعيب ، يرجع بعضها لأسباب موضوعية: ويعود معظمها إلى عدم الحيدة والنزاهة فى الحكم ؛ نظراً لأنها صادرة من خصوم الشاعر .

ومـــا أخذه عليه هؤلاء النقاد ظل يلاحق الشاعر فى جميع العصور الأدبية بحيث لا يكـــاد يخلـــو كتاب من كتب النقد أو البلاغة من الإشارة إلى تعسف المتنبى أو تعقيده على النحو الذى أشار إليه هؤلاء النقاد الأوائل .

ولقد كان التعقيد فى الصورة أحد العيوب التى ألصقها خصوم المتنبى به ، وإذا كان لابـــد لـــنا أن نقرر أن معظم صور المتنبى تبرأ من هذا العيب ، فإن الحق أن صور التعقيد اللفظى قد كثرت عند الشاعر كثرة بالغة لم تعهد عند غيره من الشعـــراء .

وقد كانت تلك الملاحظة مثيرة لسؤال : هل كان مثل المتنبى فى عبقريته وشاعريته وموهبـــته الفنية المتفردة ... ممن يعجز عن أداء معانيه بعبارة واضحة الأسلوب ، مسفرة المعنى بعيدة عن الإلباس والتعقيد ؟! .

أم أن الشـــاعر كان يتعمد ذلك الغموض والإبهام ؟؟ وإذا كان الأمر كذلك فما السر فى سلوكه هذا السبيل ؟؟ .

هذا ما تتولى ـــ تلك الدراسة المتواضعة ـــ الإجابة عنه ، ولكن أقرر هنا أن المتنبى وإن كـــان شاعراً مطبوعاً إلا أنه يعمد إلى الصنعة أحيانا ـــ شأن بقية الشعراء ـــ استجابة لحوافـــز نفســـية ، فيقدم ويؤخر ويفصل على غير قياس أهل اللغة ، بما يتلاءم مع نفسيته ويتناغم مع الموقف الذى قيلت فيه أبياته ... كنوع من الاحتفال والاحتشاد فى الصنعة .

ومن ثم ربما لا ينطبق هذا التعبير ولا يتلاءم هذا الأسلوب مع ما وضعه البلاغيون مـــن قواعد عامة لاستحسان الكلم وشرائط فصاحته ، فيحكمون عليه بمجافاة الفصاحة ، ومخاصـــمة الـــبلاغة ، مـــع أن الشاعر ـــ فى تعبيره هذا ـــ ينبئ عن نفسيته ويتجاوب مع انفعالاته ، ويلمح فى قوله هذا ظروفاً واعتبارات خاصة .

فالشـــاعر لم يكن هذا الغموض ولا التعقيد ديدنه ولا منهجه فى الإفصاح عما فى نفسه ، بل كان يلجأ إليه فى حالات تشفع له فى معظمها ، وكان يستخدمه طريقة من طرق الإبلاغ عما فى نفسه .

ثم إن بعـــض هـــذه الشواهد ـــ إن لم يكن معظمها ـــ قد وردت فى كتب هؤلاء العلماء مبتورة من سياقها ، ولا مراء أن للسياق الأثر الأكبر فى اختيار الصورة واضحة أو غامضة مبينة أو مبهمة .

لذا كان من أغراض الدراسة جمع شواهد التعقيد اللفظى عند المتنبى سواء تلك التى ذكرها علماء النقد البلاغة فى كتبهم تلك التى لم يذكروها ولكن ينطبق عليها ضابط التعقيد ثم نقل آراء بعض علماء اللغة والبلاغة فى هذا الشاهد مع بيان موطن التعقيد فيه .

ثم أحاول أن أتلمس غرض الشاعر من هذا التعقيد والسر فى خروجه عن المألوف ، ووقـوعه فى هـذا الاختـراق كل هذا مع ربط الشاهد بسياقه العام ، حتى تكون دراسة موضوعية بعيدة عن كتب الخصومات والمطارحات .

والله أسال أن يعصمنا من الزلل ويهدينا سواء السبيل ، ويسلك بنا طريق الهداية ، كما أسأله ـ سبحانه ـ أن يتجاوز عما فى هذه الدراسة من نقص وسهو وخطأ وأن يثيبنى عما فيها من سداد وصواب ، فإنه منه وإليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم ..

د / رفعت على محمد

التعقيـــــد

العقـــد : نقيض الحل ، عقد يعقده عقداً وتعاقد أو عقده وقد انعقد وتعقد ، وعقدة اللسان : مـــا غلظ منه ، وفى لسانه عقده وعُقَد ، أى التواء أعوصه وعماه ، وكلام معقّد : أى : مغمّص .[١]

والتعقيد من الأساليب المستهجنة عند الأدباء والنقاد ؛ لما يترتب عليه من غموض فى المعنى وعناء فى التفكير ثم لا يحصل منه على معنى يساوى هذا العناء أو فائدة تعوض ذلك التعب .

يقول بشر بن المعتمر فى صحيفته التى أوردها الجاحظ : " إياك والتوعر فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظـــك " [٢] .

وهو عند البلاغيين : ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به [٣] .

وله عندهم سببان : –

– أحـــدهما : مـــا يرجع إلى اللفظ ويطلقون عليه " التعقيد اللفظى " وضابطه أن يختل نظم الكلام ولا يدرى السامع كيف يتوصل منه إلى معناه [٤] .

وقـــد حـــذر علماء اللغة من اللجوء إلى مثل هذا اللون من التعقيد ، مع ضرورة معرفته حتى يمكن تجنبه والبعد عنه [٥] .

– وسمـــاه ابن الأثير : " المعاظلة المعنوية " [٦] ، وقال : وقد استعمل الفرزدق من التعاظل كـــثيراً ، كأنه كان يقصد ذلك ويتعمده لأن مثله لا يجئ إلا متكلفا مقصوداً وإلا فإذا ترك مؤلـــف الكـــلام نفسه تجرى على سجيتها وطبعها فى الاسترسال لم يعرض له شئ من هذا التعقيد .

ومثلوا له بقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكاً أبو أمه حى أبوه يقاربه [٧]

---

(١) اللسان (عقد) .
(٢) البيان والتبيين ٣٦/١ ت / عبد السلام هارون .
(٣) الإيضاح وبهامشه البغية ١٩/١ .
(٤) السابق ص ٢٠ .
(٥) ينظر الخصائص ٣٩٢/٢ .
(٦) المثل السائر ٢٢٠/٢ .
(٧) ديوانه ص ٣٩ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان ـ ت / سيف الدين الكاتب وآخرون

كل الذى أراد الشاعر أن يقوله : ليس مثل هذا الممدوح فى الناس حى يقاربه فى الفضائل إلا ملكاً هو ابن أخت الممدوح .

وهـو معنى ـ على ابتذاله وقلة فائدته ـ لا يظهر إلا بعد نوع من إعنات الفكر وإطالة النظر ، لان الشاعر سلك فيه طريق المعاظلة والتكلف والتعسف وكد ذهن السامع بمعرفة ترتيب الألفاظ حتى يخرج بهذا المعنى المبتذل .

فسبب التعقيد هنا ، هو عدم ترتيب الألفاظ وفق ترتيب المعانى فى الذهن :

- حيث فصل الشاعر بين البدل " حى " والمبدل منه (مثله) .
- قدم المستثنى " ملكاً " على المستثنى منه (حى) .
- فصل بين المبتدأ والخبر أبو أمه ـ أبوه " بأجنبى " " حى" .
- فصل بين الصفة (حى) والموصوف (يقاربه) بـ (أبوه) فهو بسوء ترتيبه الألفاظ ، وتقديمه وتأخيره وفصله بين المتلازمين عقد المعنى وصار به إلى التعمية التى هى ضد الفصاحة ، لأن الفصاحة هى الظهور والبيان .

وقد ذكر ابن رشيق نقلا عن الرمانى أسباب التعقيد ثم قال : " وقد اجتمع فى البيت أسباب الإشكال الثلاثة : سوء الترتيب وبه تغير نظام الكلام ، وسلوك الطريقة الأبعد فى قوله : " أبو أمه أبوه " وكان يجزئه أن يقول : خاله ، وإيقاع مشترك الألفاظ فى قوله : (حى يقاربه) لأنها لفظة تشترك فيها القبيلة والحى من سائر الحيوان بالحياة) [1] .

أما المبرد فيصفق الشاعر فى هذا البيت بأنه اقبح الضرورة ، واهجن الألفاظ وابعد المعانى وذلك " بما أوقع فيه من التقديم والتأخير كأن هذا الشعر لم يجتمع فى صدر رجل واحد " [2] ، وسوف يأتى تعليق على بيت الفرزدق هذا .

ومن شواهد التعقيد اللفظى قول الشاعر :-

كأن قفراً رسومها قلما فأصبحت بعد خط بهجتها

يريد : فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلما خط رسومها ، وهذا هو الترتيب الصحيح للبيت .

والعرب يشبهون الأطلال بخطوط الأقلام وهو كثير فى أشعارهم .

---

(١) العمدة ٢٦٧/٢ .

(٢) الكامل ١٨/١ .

ويصف ابن الأثير هذا البيت بأنه من أقبح درجات التعقيد ، لأن معانيه قد تداخلت ، وركب بعضها بعضا [١] .

ومنه قول الشاعر :

دون فلم يبذل ولم ابذل صان اللئيم وصنت وجهى ماله

وأصل الكلام : صان اللئيم ماله ، وصنت وجهى عنه ، فالفصل بين الفعل والمفعول قد أحدث هذا التعقيد [٢] .

والخلاصة : أن التعقيد اللفظى : هو عدم وضوح دلالة الكلام ، لخلل فى نظمه فالتراكيب التى تنطوى عليه غير فصيحة ، والألفاظ لم تسفر عما وراءها من معنى ، إلا بعد جهد وعناء فى ترتيبها .

والكلام الخالى من التعقيد : (هو ما سلم نظمه من الخلل ، فلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم أو تأخير أو إضمار أو غير ذلك إلا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة لفظية أو معنوية) [٣] .

فالتعقيد اللفظى مخالف لشرائط الفصاحة ، ومواصفات البلاغة ، لما ينطوى عليه الكلام من غموض والتواء الذى هو نقيض الظهور والبيان .

وقد كثرت شواهد هذا العيب فى ديوان المتنبى كثرة استوقفت الباحث ، وأغرته بأن يعقد العزم على أن يخصص هذا البحث لدراسة هذه الظاهرة فى شعره .

٢ - التعقيد المعنوى :-

هو قسيم التعقيد اللفظى ، وسبب التعقيد فيه راجع إلى المعنى وليس إلى اللفظ .

وعرفه البلاغيون : بألا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثانى الذى هو لازمه والمراد به ظاهراً . [٤]

والمراد بالمعنى الأول : المعنى الأصلى والمعنى الذى هو لازمه هو المعنى المجازى أو الكنائى فالتعقيد المعنوى ينشأ من خفاء العلاقة بين المعنى الحقيقى والمجازى ، لأن المسافة بين

---

(١) المثل السائر ٢/٢٢٠ .
(٢) فن البلاغة ص ٧٠ د / عبد القادر حسين .
(٣) الإيضاح ١/٢١ .
(٤) السابق ١/٢١ .

المعنيين ينبغى أن تكون قريبة والعلاقة بينهما وضيئة وإلا اضطراب التعبير والتبس الأمر على السامع فوقع المتكلم فى هذا العيب المخل بفصاحة الكلام

فإذا كانت كلمة " اللسان " تستعمل مجازاً فى اللغة ، لوجود العلاقة التى تقرب ذلك الاستعمال ، واستعملها إنسان فى الجاسوس مثلا كان مخطئاً .

وكان فى كلامه تعقيد ، لأن الذهن يتعثر فى انتقاله من المعنى اللغوى للكلمة إلى المعنى المجازى لها ، بخلاف استعمالها مجازاً عن اللغة ، فان الذهن ينتقل من المعنى الأول إلى الثانى فى سهولة ويسر أما الجاسوس فله لفظ مجازى آخر هو العين .

والمثال التقليدى لذلك بيت العباس بن الأحنف :-

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

يريد أنه يتحمل الفراق وآلامه ، ويوطن النفس عليه ، لكى يحظى بوصل دائم وسرور مستمر ، وفى البيت كنايتان :-

- كنى بسكب الدموع عن الحزن الناشئ عن فراق الأحبة ، وهى كناية واضحة وصحيحة ، لظهور العلاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى .

- والثانية : كنى بجمود العين عن الفرح الناشئ عن دوام اللقاء ، وهى كناية غامضة وغير صحيحة ، لخفاء القرينة ، إذ لا ينتقل الذهن من المعنى اللغوى لجمود العين إلى المعنى الكنائى وهو السرور الناشئ عن اللقاء ذلك لأن العرب تستخدم جمود العين لتعبر عن عدم بكائها عندما يريد صاحبها ذلك ، لا ليعبر به عن السرور كما صنع الشاعر .

يشهد لذلك الاستعمال المعجمى ، ودلالته فى أشعارهم .

وللإمام عبد القاهر كلام رائق حول هذا البيت [١]

ومن ذلك قول امرئ القيس :

كسا وجهها سعف منتشر [٢] وأركب فى الروع خيفانةً

والتعقيد فى الشطر الثانى ، حيث وصف الفرس بأن شعر ناصيتها طويل كسعف النخل يغطى وجهها ، وهو وصف غير مقبول ، لأن المعروف عند العرب أن شعر الناصية إذا غطى العينين لم تكن الفرس كريمة ولا خفيفة .

---

[١] دلائل الإعجاز ص ٢٦٩ .

[٢] ديوانه ص ١١٢ دار صادر بيروت من قصيدة يصف فيها فرسه وخروجه إلى الصيد

والخلاصة : أن التعقيد المعنوى هو خفاء دلالة الكلام على المقصود منه لخلل ناشئ من عدم قدرة الذهن على الربط بين الدلالة اللغوية والدلالة الكنائية المجازية المرادة من الجملة .

* * *

" التعقيـــد فـــي شعـــر الفحـــول "

إذا كان الأسلوب الصحيح يجمع بين الشكل والمضمون ، فإن الوضوح والبعد عن التعقيد ، من أهم " الشروط اللازمة لصحة الأسلوب وجماله ، فالفكرة التائهة والعبارة الملتوية يغضان من الجمال الأدبي الذى نطلبه فى الأدب وكل منهما يشغل الذهن دون الإحساس بالجمال ، ويعوق الفكر عن الاهتداء لمواطنه ، ويكون هذا أول إخفاق يصيب الأثر الأدبي وهو يأخذ طريقه إلى متذوقيه " [١] .

وقد فطن العلماء قديماً إلى وجود هذا الأسلوب كثيراً فى شعر الفحول من الشعراء كالفرزدق وأمثاله .

فقد ذكر ابن سلام : " أن الفرزدق كان يداخل فى الكلام ، وكان هذا يعجب أصحاب النحو " [٢] ، واستشهد على ذلك ببيت الفرزدق السابق وغيره من أبياته .

ويقرر ابن الأثير أن الفرزدق كان يستعمل التعاظل كثيراً ، كأنه كان يقصد ذلك ويتعمده ، لأن مثله لا يجئ إلا متكلفاً مقصوداً [٣] .

وابن الأثير يشير فى هذا النص إلى شيئين لهما أهميتهما فى دراستنا هذه :

- كثرة التعقيد فى شعر الفرزدق — وهو من الشعراء الفحول ، وقيل : إنه أخذت عنه ثلث اللغة ، وقد أحصى له النقاد كثيراً من صور التعقيد ، وأوردها البلاغيون فى كتبهم شواهد على التعقيد اللفظى ... وهى لا تدخل فى نطاق الدراسة .

- أن الفرزدق كان يأتى به عن قصد وتعمد ، لأن مثل هذا النوع من التركيب لا يجئ إلا متكلفاً مقصوداً ، فإن الشاعر إذا ترك نفسه على سجيتها وطبعها فى الاسترسال ، لم يعرض له شئ من هذا التعقيد .

ولعل نص ابن الأثير هذا يلفت النظر إلى ضرورة التأنى فى الحكم على بعض الشعراء لا سيما من كان مثل الفرزدق الذى كان لا يرمى القول على عواهنه ، بل هو يلبس المعنى لغرض ، ويسلك فى صياغته أحياناً مسلكاً غير واضح لمغزى يهدف إليه ، فهو شاعر يعرف طبائع اللغة وعوائد التراكيب ، ولا يعجز عن صقل أسلوبه وتهذيبه .

---

(١) الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى ص ٢١٥ د / طه أبو كريشة .
(٢) طبقات فحول الشعراء ٣٦٤/١ وما بعدها ت الشيخ محمود شاكر .
(٣) المثل السائر ٢٢٢/٢ .

ولعل هذا هو الذى وجه علماء البلاغة المحدثين إلى محاولة معرفة الغرض من وراء هذا التعقيد فى بيت الفرزدق السابق ، وهدفه من ذلك الالتواء وإن كان المتقدمون قد استهجنوه على نحو ما ذكرت .

فيرى بعضهم : أن السر فى هذا هو ازدحام الأفكار فى ذهن الفرزدق وضيق الوزن الشعرى وقافيته باحتمال العبارة المثلى ، واللفظ المرتب حسب ترتيب المعنى فى الذهن [١] .

بينما يرى آخر أن الذى ألجأ الشاعر إلى هذا الأسلوب رغبته فى التهكم بالممدوح لأنه كان موالياً للعلويين ويبطن العداء لبنى أميه والممدوح منهم [٢] .

ولعل ما يرجح هذا التوجيه ، تكراره فى نفس السياق فى قوله :

أبوها ولا كانت كليب تصاهره[٣] إلى ملك ما أمه من محارب

والقصيدة فى مدح الوليد بن عبد الملك ، والبيت من شواهد البلاغيين فى التعقيد إذ أصل التركيب : إلى ملك أبوه ما أمه من محارب فقدم وأخر حتى أبهم المعنى .

ولك أن تقارن بين هذه الأبيات وبين قصيدته العصماء فى مدح الإمام على زين العابدين ـــ رضى الله عنه ـــ والتى مطلعها :-

والبيت يعرفه والحل والحرم [*] هذا الذى تعرف البطحاء وطأته

ترى الفرق شاسعاً ويتأكد لك رجاحة هذا التوجيه وأن الفرزدق كان يتهكم بممدوحيه من بنى أمية من خلال هذا الأسلوب .

وغرضنا من التعرض لمثل هذا أن نوضح أن تلمس غرض من وراء أسلوب التعقيد كان منهج بعض الدارسين قديماً وحديثاً .

بل إن ابن جنى يذهب إلى أبعد من هذا حينما يذكر أن مثل هذا التعقيد حين يرد عن من تؤخذ عنهم اللغة ، لا يدل على ضعف ، فهم لا يعجزون عن صقل أسلوبهم وتهذيب لغتهم ، بل إن ذلك يدل على فرط ثقة الشاعر فى نفسه ، وعدم احتفاله بقبول من يقبل ، ورفض من يرفض .

---

(١) المعانى فى ضوء اساليب القرآن ص ٥٧ د / عبد الفتاح لاشين .
(٢) خصائص التراكيب ت ٠د / محمد أبو موسى .
(٣) ديوانه ص ١١٢ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ـ لبنان ـ ت / سيف الدين الكاتب وآخرين .
(*) اختلف فى نسبة القصيدة إلى حزين الكنانتى أو إلى الفرزدق وهى فى ديوانه .

وإليك هذا النص المتفرد الرائع : " فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها ، وانخراق الأصول بها ، فأعلم أن ذلك على ما جشمه منه وإن دل من وجه على جوره وتعسفه .

فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمطه وليس بقاطع دليل على ضعف لغته ، ولا قصوره عن اختياره الوجه الناطق بفصاحته ، بل مثله فى ذلك عندى مجرى الجموح بلا لجام ، وارد الحرب الضروس حاسراً من غير احتشام ، فهو وإن كان ملوماً فى عنفه وتهالكه ، فإنه مشهود له بشجاعته وفيض منته [١] .

وابن جنى يقرر فى هذا النص أن الشاعر قد يغرب فى بيانه ويرتكب بعض الضرورات للإشعار بقوة بيانه وتملكه ناصية اللغة ، وأن ذلك لا يدل على ضعف من الشاعر ، بل على فرط ثقته بنفسه ، حتى إنه ليشبهه بالفارس المفرط فى شجاعته فى إدلاله بقوته ، حتى أنه ليجرى الجموح بغير لجام ، ويدخل الميدان حاسراً بغير احتشام .

ثم يذكر أن الشاعر إذا أورد شيئاً من هذا التعقيد فكأنه : " لأنسه بعلم غرضه ، وسفور مراده ، لم يرتكب صعباً ، ولا جشم إلا أمماً ، ووافق بذلك قابلاً له أو صادف غير أنس به ، إلا أنه قد استرسل واثقاً ، وبنى الأمر على أن ليس ملتبســاً " [٢] .

وهذا النص الثرى القوى يوضح لنا سر ورود هذا اللون من التعقيد فى شعر كبار الشعراء ... كالفرزدق ، وأبى تمام ... والمتنبى ... وغيرهم .

حيث يوردون فى أشعارهم كثيراً من الأبيات التى تلتوى أساليبها وتغمض معانيها ... لما ارتكب الشاعر فيها من مخالفة المألوف فى التراكيب ، وعدولهم عن المشهور الفصيح إلى غيره ، وهم قادرون على ألا يعدلوا .

" وذلك لأنهم بهذا العدول عن الأقوى وهم فى السعة يعدون ويمتهدون لألسنتنا أساليب وطرائق وسنناً نلجأ إليها حين نضطر إلى ذلك ، وكأنهم يوسعون دائرة الجواز ويضيقون دائرة الممتنع ، ويبسطون من امتداد الصواب ما اتسع ، إزالة للحرج حتى تتسع مناهج القول أمام كل ذى بيان " [٣] .

---

[١] الخصائص ٣٢٩/٢ .
[٢] السابق ٣٩٣/٢ .
[٣] مراجعات فى الدرس البلاغى ص ١٣١ د / محمد أبو موسى مكتبة وهبه .

والمتنبى ليس بدعاً فى هذا الأسلوب ، ولكنه قد أكثر منه كثرة لم تعهد عند غيره من الشعراء ، حتى ألصقها خصومه به ، مع أن الكثرة الكاثرة من صور المتنبى تبرأ من هذا العيب ، وقد أشار إلى ذلك علماء النقد القدامى .

يقول ابن رشيق : وكان أبو تمام يأتى بالوحشى الخشن كثيراً ويتكلف ، وكذلك أبو الطيب المتنبى كان يأتى بالمستغرب ، ليدل على معرفته " [١] .

والتعقيد داخل ضمن المستغرب ، فهو إغراب فى اختيار طريقة فى النظم غريبة فى متعارف الأساليب .

ويذكر القاضى الجرجانى فى ثنايا دفاعه عن تعقيدات المتنبى : " ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعراً ، لوجب أن لا يرى لأبى تمام بيت واحد ، فإنا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وفر التعقيد حظهما ، وأفسد به لفظهما ، ولذلك أكثر الاختلاف فى معانيه ، وصار استخراجها باباً منفرداً ، ينتسب إليه طائفة من أهل الأدب وصارت تتطارح فى المجالس مطارحة أبيات المعانى ، وألغاز المعمى " [٢] .

وعلى ضوء من إشارات علمائنا السابقة التى يبررون فيها استعمال فحول الشعراء لمثل هذا اللون من التركيب ، وفقا لاعتبارات فنية ، وحوافز نفسية ، مرجعها إلى شخصية الشاعر ، فسوف نتناول أبيات المتنبى التى جاءت من خلال هذا الأسلوب بعيداً عن كتب الخصومات الأدبية ، والمطارحات النقدية والتى حفلت بالمبالغة فى النقد حتى إن أحدهم أسقط ديوان الشاعر من أجل مصراع بيت جاء من خلال هذا الأسلوب [٣]

• • •

---

[١] العمدة ٢٦٦/٢ .
[٢] الوساطة ص ٤١٧ .
[٣] السابق : نفس الصفحة .

عرض أبيات التعقيد
عند المتنبي

١ - مقام الإغراب للتعبير عن شاعريته :-

يقول المتنبي :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشجاه ساجمه [١]

ساق البلاغيون هذا البيت شاهداً على التعقيد اللفظي ، كما سنورد كلامهم بعد قليل .

وهو مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ومعناه : أبكيا معي بدمع ساجم فذلك أشفى للوجد ، كما أن الربع أشجى للمحب إذا درس .

ومن دلائل التعقيد في البيت كثرة التفسيرات التي ذكرها شراح الديوان لتوضيح معناه ، والتي يمكن الاكتفاء منها بشرح العكبري الذي نقل كثيراً من هذه الشروح كالواحدي وابن القطاع والخطيب وأبي الفتح ... [٢] .

وبمراجعة تلك الشروح يلاحظ أن ألفاظ البيت لا تفي بأكثرها وذلك بسبب التعقيد اللفظي في البيت .

موطن التعقيد في البيت :-

نشأ التعقيد في بيت المتنبي عن التقديم والتأخير والفصل ... مما أدى إلى التواء المعنى وإغرابه ، لأن تقدير البيت : وفاؤكما بأن تسعدا كالربع أشجاه طاسمه

فـ (وفاؤكما) مبتدأ و (كالربع) جار ومجرور خبر ، والمبتدأ والخبر يؤذنان بتمام الكلام ، ولا يجوز أن يتعلق بالمبتدأ بعد الإخبار عنه شئ ، فلا يجوز أن تتعلق الباء " بالوفاء " بل تتعلق بفعل يدل عليه الكلام ، وكأنه لما ذكر المصدر وقال : " وفاؤكما " قال : ووفيتما بأن تسعدا " [٣] وقد كان هذا البيت محور مناقشات كثير من علماء اللغة والنحو ، فضلا عن النقاد وشراح الديوان .

وقد استطرد العكبري في بيان فساد هذا التركيب ، وقد يكون من المفيد هنا نقل ما ذكره من أن أبا الفتح سأل المتنبي عن هذا البيت : بأي شئ تعلق الباء ؟ فقال : بالمصدر

---

(١) ديوانه ٣/٣٢٥ .
(٢) شرح العكبري ٣/٣٢٥ ، ٣٢٦ .
(٣) السابق ٣/٣٢٥ .

الـــذى هو " وفاء " فقلت : بم رفعت وفاؤكما ؟ فقال لى : بالابتداء فقلت له : أين خبره ؟ فقال : كالربع ، فقلت له : هل يصح أن تخبر عن أسم قبل تمامه ، وقد بقيت منه بقية ، وهى الباء ؟ فقال : لا أدرى إلا أنه قد جاء له نظائر[١]

فمـــوطن التعقيد فى البيت ناشئ من الفصل بين المبتدأ ومتعلقه بالخبر ، وذلك غير جائز من جهة التركيب النحوى ، فلا يخبر عن المبتدأ إلا بعد ذكر متعلقه كما لا يبدل الاسم إلا بعد تمامه ، وكذلك العطف والتوكيد وجميع ما يؤذن بتمام الاسم ... فالشاعر هنا وقع فى الضرورات القبيحة .

يقول صاحب الوساطة : ولو احتمل الوزن ترتيب الكلام على صحته ، فقيل : " وفاؤكمـــا بأن تسعدا أشجاه طاسمة كالربع " أو " وفاؤكما بأن تسعدا أشجاه طاسمه " لظهر هذا المعنى المضنون به المتنافس فيه " [٢] .

آراء البلاغيين فى الشاهد :-

ورد هـــذا البـــيت شاهداً للتعقيد اللفظى فى كثير من كتب البلاغيين ، دون أن يلتمسوا عذراً للشاعر ، أو يحاولوا ربط تلك الصياغة بنفسية الشاعر والتى ستتضح المطابقة بينها وبين تلك الصياغة عند تدقيق النظر .

فالقاضى الجرجانى يرى عدم استحقاق المعنى لكل هذا التعسف فى التركيب فيقول بعد أن يذكر معنى البيت :

فما هذا من المعانى التى يضيع لها حلاوة اللفظ ، وبهاء الطبع ، ورونق الاستهلال ، ويشـــح عليها حتى يهلهل لأجلها النسج ، ويفسد النظم ، ويفصل بين الباء ومتعلقها بخبر الابتداء قبل تمامه ، ويقدم ويؤخر ، ويعمى ويعوص " [٣] .

وابن سنان الخفاجى يمثل بهذا البيت للتعقيد المؤدى إلى فساد معنى البيت وإعرابه ، أو ســـلوك الضرورات حتى يفصل فيه بين ما يقبح فصله فى لغة العرب ، ولم يزد ابن سنان على ما ذكره شراح الديوان من أن ذلك راجع إلى الفصل والتقديم والتأخير [٤] .

---

(١) السابق ٦٢٣/٣ ، وأمالى ابن الشجرى ٢٩٩/١ .
(٢) الوساطة ص ٩٨ .
(٣) السابق نفس الصفحة .
(٤) ينظر سر الفصاحة ١٠١ ، ١٠٣ .

والإمـــام عـــبد القاهر الجرجانى يسوق البيت ضمن شواهد على فساد النظم وأن الســـبب فى ذلـــك هو مخالفة أصول علم النحو ، والخروج على قواعده وقوانينه وذكر أن الفســـاد والخلل فى هذا البيت كانا من أن تعاطي الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصـــواب ، وعلى غير القواعد التى تواضع عليها علماؤه ... فـــ (سبب فساد النظم واختلاله ألا يعمل بقوانين هذا الشأن) وسبب حسنه هو (توخى معانى هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم) [١] .

وذكر هذا البيت ابن معصوم ، ورأى أنه تكلف لمعناه هذا اللفظ ، المعقد والترتيب المتعسف ، بلا فائدة تذكر .

يقول ابن معصوم : " ومن مطالعه التى تكلف لها اللفظ المعقد ، والترتيب المتعسف لغـــير معـــنى بديع يفى ترفه وغرابته بالتعب فى استخراجه ، وتقوم فائدة الانتفاع به بإزاء التأذى بسماعه : " قوله : (وفاؤكما كالربع .... البيت [٢]

ومنهم صاحب الإبانة الذى يؤكد التواء هذا البيت وغموض معناه مع قلة الفائدة منه [٣] كما انتقد هذا البيت كثير من علماء اللغة كابن جنى[٤]، وأبى منصور الثعالبى [٥] ، والبغدادى [٦] ، وابن الشجرى [٧] .

قراءة ثانية لبيت الشاهد :-

عند التأمل فى نظم البيت نلحظ تناسباً وتناغماً بين نفسية الشاعر ، وما جاء عليه نظم البيت ، وأن ما توارد عليه البلاغيون وأهل اللغة ، يحتاج إلى مراجعة ومناقشة .

ذلـــك أن هذا البيت جاء مطلع قصيدة تمثل باكورة قصائد المتنبى فى مدح سيف الدولة .

فقد ذكر العكبرى أن هذه القصيدة هى أول ما أنشده سنة سبع وثلاثين وثلاث مائة عند نزوله إنطاكية ، ومنصرفه من ظفره بحصن بروزيه .[٨]

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٨٣ ، ٨٤ .
(٢) أنوار الربيع ٧٠/١ ، ٧١
(٣) الابانة ص ٩٦ .
(٤) الخصائص ٣٠٤/٢ .
(٥) يتيمة الدهر ١٨٢/١ .
(٦) شرح أبيات المغنى ١٦٧/٧ .
(٧) أمالى ابن الشجرى ٢٩١/١ .
(٨) شرح العكبرى ٣٢٥/٣ والصبح المنبى ص ٧١ .

ولاشك أن الشاعر يحتفى بابتداء لقائه الممدوح ما لا يحتفى فى غيره ، لا سيما إذا كان سيف الدولة ، وهو من هو فضلاً وأدباً وذيوع صيت .

ونلمح هذا كثيرا فى مدح المتنبى لسيف الدولة لأول اتصاله به ، لأن الشعراء متوافرون على بابه ، وكان له ــ من هؤلاء الشعراء والنقاد ــ حساد كثيرون يتلمسون له الهفوة ، ويتمنون له السقوط ، هذا فضلاً عن أن سيف الدولة نفسه من الأدب والشعر بمكان ، فكان المتنبى لذلك يحتشد لكثير من قصائده ويتعمل لها ، فتجئ أبياته على هذا النحو من التركيب المغرق فى الإغراب ومخالفة المألوف كنوع من الإعلان عن موهبته وشاعريته عن طريق الاحتفال بل الإمعان فى الاحتفال والاحتشاد إلى ما وراء طبعه .

إذن فالتعقيد فى البيت مما قصد إليه عن عمد ، فهو لجأ إليه لمغزى يهدف إليه ، حيث وجد فيه طريقاً من طرق الإبلاغ والتعبير عما فى نفسه .

فهو يعلم أنه يقدم على بيئة جديدة ، " تختلف عن البيئات قبلها ، وإذن فليصطنع لهذا المقام الخطير ما يلائمه من فخامة الوزن ، وضخامة القافية ، وجزالة اللفظ ودقة المعنى ، وهذا واضح فى بيت الشاهد ، حيث أراد أن يعنى خصومه الذين عرفهم ، وأن يكلفهم التفكير فى تفسير هذا اللغز الذى استفتح به قصيدته" [١] .

وهو مقام جدير بكل هذا ، لأنه يريد أن يسحب البساط من تحت أقدام شعراء سيف الدولة ، ويبعدهم عن رحابه ، ويتفرد هو بجنابه وقد تحقق له ما أراد بفضل موهبته وشاعريته .

وقد سبق أن نقلت نص ابن جنى الذى يوضح فيه سر وقوع بعض فحول الشعراء فى هذا الاختراق ، وأن ذلك لا يدل على ضعف من الشاعر ، بل إن ذلك حين يرد عمن لاشك فى قدرته على التجويد ، يدل على فرط اعتداده بنفسه ، فهو قد تعسف فى اللفظ " وجشم ما جشمه على علمه بما يعقب اقتحام مثله إدلالاً بقوة طبعه ، ودلالة على شهامة نفسه " . [٢]

فهو نوع من الإدلال والتيه بموهبة البيان ، شأنه شأن الفارس المغوار الذى يرد الحرب الضروس حاسراً بغير احتشام ... كما يشبه ابن جنى .

---

(١) الخيال الشعرى عند أبى الطيب ص ٢٩١ د / طه أبو كريشة ومع المتنبى ص ٣٥٠ د / طه حسين بتصرف

(٢) الخصائص ٣٩٢/٢

فالبيت لا يمثل دليلاً على ضعف لغة الشاعر ، ولا قصوره عن اختيار القالب اللغوى الذى يناسب معناه بل إن البيت من مواضع الإغراب التى تتيح للشاعر لوناً مما يمكن أن نسميه " كسر البناء " ؛ احتفاء بنظمه ، وإشعاراً بقوة طبعه ، وسعة خياله ، ودلالة على تمكنه من لغة الشعر ؛ نظراً لأنها أولى مدائحه فى سيف الدولة .

ودليلنا على هذا : أن الشاعر قد أبدع وأغرب ، واحتشد واحتفل ، وتعمل وتصنع ، فى هذه القصيدة ما لم يصنع فى غيرها ، حتى أتى فيها بكل جديد ليعلن للممدوح عن نفسه ، وانه الجدير بثقته ، فهو وحده الشاعر وغيره الصدى .

ونحن هنا لا نعرض من القصيدة إلا ما يجلى الفكرة ، ويوضح الغرض ، وإلا تشعب بنا الحديث : —

١— اشتمال القصيدة على أكثر من بيت أغرب فيه الشاعر ، حيث قدم وأخر ، وفصل بين المتلازمين على نحو لا يفصح عما وراءه من معنى ، ولا يسفر عما يتضمنه من فكرة ... إلا بعد جهد وعناء فى ترتيب الألفاظ ، وذلك كما صنع فى مطلع القصيدة ، وهو نوع — أيضاً — من الإعلان عن ذاته والزهو بنفسه ، والإدلال بشاعريته .

من مثل قوله :—

قفى تغرم الاولى من اللحظ مهجتى بثانية والمتلف الشئ غارمه

معنى البيت : إنه نظر إليها نظرة أتلفت مهجته ، فيقول لها : لأنظرك نظرة أخرى ترد مهجتى وتحميها ، فإن فعلت كانت النظرة الثانية غرما لما أتلفته النظرة الأولى ... لأن المتلف غارم .

ويظهر جلا موضع الإغراب فى البيت بسبب أن ما جاء عليه نظم البيت لا يسفر عما وراءه من معنى ، لأن الشاعر لم يلتزم بالتركيب المعهود ، لذا فقد تباينت تفسيرات الشراح فى هذا البيت أيضاً ، وقد نقل العكبرى بعضاً من تفسيراتهم[1] .

ومن هذه الأبيات قوله :—

وما حاجه الأظعان حولك فى الدجى إلى قمر ما واجد لك عادمه

ومعنى البيت : أنه من وجدك لم يعدم القمر ، لأنك قمر مثله ... فقوله ما واجد لك عادمه : استئناف ، والضمير للقمر .

---

[1] ينظر شرح العكبرى ٣/٣٣٠ .

وجلى ما فى هذا البيت من غموض وعدم دلالة واضحة على هذا المعنى ، لذا حكم عليه " صاحب الإبانة " بالتكلف والتعسف فى صياغته [١] ، وغيرها من أبيات القصيدة ، والتى تمثل نوعاً من الاحتفاء بها والاحتشاد لها وهكذا شأنه وتلك طريقته فى بواكير مدائحه لا سيما فى مدح سيف الدولة " لم يكن له بد من حشد القريحة ، والإكثار من التحرى ، والتنطس فى ألفاظه ومعانيه ، والإمعان فى الاحتفال إلى ما وراء طبعه ، حتى تنقلب قريحته صنعة ، وبادرته تكلفاً ، وكذلك شأنه إذا مدح غيره من مشاهير علماء الأدب وأمراء النقد كابن العميد مثلا ... وإلا فلم يكن المتنبى يتوخى الاحتفال والاختراع إلا ما ساقته القرينة عفوا" [٢].

٢- تضمن القصيدة لكثير من الصور البيانية الشائقة ، التى راقت الأدباء وأهل اللغة لما فيها من الجدة والصنعة من مثل قوله :

بليت بلى الاطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

والشاعر هنا يدعو على نفسه بالفناء إذا هو لم يقف بالأطلال ليذكر عهد من كانوا بها .

ولك أن تتساءل هل كان يمكن لشاعر أن يوفق لتصوير حال الذاهل المتحير فى اضطراب ودهشة يمثل هذا التصوير ، إلا بنوع من الاحتشاد والاحتفاء ؟

إن للتصوير فى هذا البيت جدة وطرافة نتجا من شدة التناسب بين من يقف بديار الأحبة ، والشحيح الذى فقد فى التراب خاتمه لطول وقوفهما ودقة تأملهما ، وشدة ذهولهما وتحيرهما .

لذا حظيت هذه الصورة بإعجاب كثير من الأدباء والنقاد ، بل إن " المعرى " قد اعتبر هذا البيت واسطة العقد فى شعر المتنبى ، وأرجع إليه فضيلة التفوق على غيره من الشعراء .... وناهيك بالمعرى ناقداً ومرجحاً .

قيل : كان أبو العلا المعرى إذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نواس كذا ، قال البحترى : كذا ، قال أبو تمام كذا ، فإذا أراد المتنبى قال : قال الشاعر كذا ؟ تعظيما له .... فقيل له يوما : لقد أسرفت فى وصفك للمتنبى ، قال : أليس هو القائل : " بليت بلا الأطلال ..... البيت [٣] .

---

(١) الإبانة ص ٩٩ .
(٢) العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب ص ٥٨ ، الشيخ ناصيف اليازجى .
(٣) الصبح المنبى ص ٧٢ .

لذا أشاد الكثير من أهل الفضل والأدب بكثير من أبيات تلك القصيدة العصماء مما حدا بهم أن ينثروها عن طريق حل أبياتها ... لا سيما تلك الأبيات الرائقة التى صور فيها عســكر سيف الدولة ، أو تلك التى وصف فيها فسطاطه المصور ، ومن هؤلاء العلماء ابن الأثير [١] ، وابن أبى الحديد [٢] ، وغيرهم .

ويــبدو أن بعض من عنى بشعر المتنبى قصرت أبصارهم دون اللحوق بالشاعر فى معــناه المحلق فعابه بما ظنه ضعفاً فى التشبيه ، وقد حشد البرقوقى كثيراً من هذه المناقشات ومعظمها تبدو عليه قتامة التعصب .

٣ – من مواضع الإغراب لدى الشاعر فى هذه القصيدة : التجديد فى القافية ، فقد بنيت على الميم التى تعقبها هاء الوصل ، وهى قافية غير مألوفة .

ولا مكرورة لدى شاعرنا ولم تتردد كثيراً فى شعرنا العربى .

وأنت تحس هنا بضخامة القافية وجرسها القوى المزلزل ، والذى قصده الشاعر عن عمــد ، لتتيح للشاعر ــ بجوار الوزن الطويل ــ مساحة للتعبير عن معانيه القوية فهى تمثل الأناة وقوة الإمعان فى التفكير ، لأنها تمثل إعلاناً من الشاعر عن نفسه .

والخلاصــة أن هــذه القصيدة من مواضع إغراب الشاعر [٣]، ومن مواطن تألقه والإدلال بمقدرته البيانية ، فكان أن سلك تلك الطريقة من التعبير ، وهى طريقة ــ وإن بدأ فــيها بعض التعسف والالتواء ــ إلا أنها مرتبطة بنفسيته متناغمةمع طبيعته ، ملائمة لمناسبة إنشاء القصيدة ، ليبرهن للممدوح أنه الجدير بثقته ، وأنه لا منافس لشعره

وهذا هو ما أشار إليه فى هذه القصيدة فى قوله :–

غضبت له لما رأيت صفاته بلا واصف والشعر تمذى طماطمه

لذا فقد كانت هذه القصيدة بهذا الشكل خليقة بمقام الشاعر من هذا الأمير لأول مرة .

ومما يدخل ضمن هذه الشواهد قول الشاعر :–

فتى ألف جزء رأيه فى زمانه أقل جزء بعضه الرأى أجمع [٤]

والبيت من قصيدة فى مدح على بن أحمد الخراسانى مطلعها :–

---

[١] المثل السائر ١٤١/١ .

[٢] الفلك الدائر ١٠١/٤ ، ١٢١ ، ١٢٥ .

[٣] ومع التماس الاعذار للشاعر وأن اغرابه تيه وإدلال بقدرته البيانية فلا يمكن أن نقبل هذا التعقيد ولا أن نلتمس له وجها من الصواب اللغوى .

[٤] ديوانه ٢٤٢/٢ شرح العكبرى .

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا فلم أدر أى الظاعنين أشيع

ومعنى البيت : أن رأيه فى أحوال زمانه يقدر بألف جزء ، وأقل جزء من هذه الأجزاء يعادل جزء منه كل ما عند الناس من الرأى .

وترتيب البيت هكذا : فى رأيه فى زمانه ألف جزء ، أقل جزء من هذه الأجزاء الألف بعضه ــ أى بعض جزء من رأيه ــ الرأى الذى فى أيدى الناس كله [١]

وأنت ترى أن المعنى الذى يختبئ وراء الألفاظ ــ وهو أن الممدوح أعلم الناس بأحوال الدهر ــ هو معنى بسيط لا يحتاج تلك المعاناة ولا التعسف فى النظم .

فقوله : (فى) خبر عن مبتدأ محذوف أى هو فى ، وألف جزء خبر مقدم ورأيه مبتدأ مؤخر ، وأقل جزء مبتدأ وبعضه مبتدأ ثان وهو مضاف إلى ضمير المبتدأ الأول ، والرأى خبر المبتدأ الثانى وهو بعضه والجملة خبر مبتدأ الأول وهو أقل .

فالشاعر قد صور معناه فى نظم لا يفصح عنه إلا بعد تقديم وتأخير فى الألفاظ ، حتى إذا صنعت ذلك ..... وجدته باقيا على غموضه ، لا يظهر لك مراده إلا بعد إطالة النظر وإعنات الفكر .

هذا الالتواء والتعسف فى النظم كان بسبب الإحشاد والتعمد الذى كان دأب الشاعر فى بداية حياته وبواكير قصائده ، كنوع من الإعلان عن شاعريته ليفسح لنفسه مكاناً بين الشعراء ، بل ليبعدهم عن الساحة وينفرد هو بثقة الممدوحين وعطاياهم ، وهذه القصيدة من بواكير قصائده كما ذكر ذلك البرقوقى [٢] .

وإليك بعضاً من أبيات قالها فى أوائل شعره ، ولتنظر هذه الأبيات فى كتب الخصومات الأدبية ، يقول الشاعر :-

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله ويجهل علمى أنه بى جاهل

فقلقت بالهم الذى قلق الحشا فقلقل عيس كلهن قلاقل

غثاثة عيشى أن تغث كرامتى وليس يغث أن تغث المآكل [٣]

وبعد :-

---

[١] شرح العكبرى ٢٤٢/٢ والبرقوقى ٣٥١/٢ .

[٢] شرح البرقوقى ٣٢٩/٢ .

[٣] ديوان المتنبى ص ٢٣ : ٢٤ المركز العربى للبحث والنشر والأبيات من قصيدة واحدة ولكنها ليست متوالية .

فذلك الغموض والعقيد كان يكثر فى أوائل شعره ، وبواكير قصائده لاسيما فى مدح أهـــل الأدب والنقد ومن يزدحم الشعراء على أبوابهم كأثر من أثار الاحتشاد والاحتفاء ، إعلاناً عن شاعريته وموهبته وإظهاراً لقوة طبعة وسمو نفسه ، وليس ضعفا منه باللغة ، ولا جهلا بتوخى أسباب الفصاحة .

ولك أن تقارن بين شعره فى سيف الدولة وابن العميد ، وبين شعره فى كافور وعضد الدولـــة ... يترجح لك صدق هذا التوجيه ، وهذا لا يعفيه فتحطيم اللغة والخروج على أسسها لا يرتضيه ناقد أو بلاغى .

٢ - الإغراب فى اللفظ دلالة على غرابة المعنى :-

يقول المتنبى :-

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل[١]

ومعـــنى البـــيت : أن هـــذا الممدوح تفتخر به الشيم والخلائق ولا يفتخر هو بها وشيمهم دلائل على حسبهم الظاهر وهو ما يعد من مآثر الآباء .

وقد استشهد البلاغيون بهذا البيت على التعقيد اللفظى .

موطن التعقيد فى البيت :-

التعقيد فى البيت ناشئ من التقديم والتأخير والفصل بين الفعل ومتعلقه .

وترتيب البيت جفخت بهم شيم أى افتخرت وهم لا يجفخون بها .

ففصل الشاعر بين الفعل " جفخت " والفاعل " شيم " بجملة " وهم لا يجفخون بها " وفصـــل بين الموصوف " شيم ؟ والصفة " دلائل " بالجار والمجرور وهذا التأخير والفصل أدى إلى محظور آخر هو تتابع الضمائر (بها بهم) وهو أمر غير مستحسن فى النظم العالى ؛ لما ينشأ عنه من الثقل والتنافر ، وللمتنبى ولوع بمثل هذا اللون من التعبير .... من مثل قوله :-

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد[٢]

وليس هذا مقام مناقشته لقصر هذه الدراسة على التعقيد اللفظى .

---

[١] ديوانه ٢٥٨/٣ .

[٢] ديوانه ص ٢٧٠/١

آراء البلاغيين فى بيت الشاهد :-

أورد كثير من البلاغيين بيت المتنبى هذا شاهداً على التعقيد ، فذكره العسكرى فى سياق تمييزه بين جيد الكلام ورديئة ، ونادرة من نوادره ، فقارن بينه وبين قول الشاعر :-

أيارب أنى لم أرد بالذى به مدحت عليا غير وجهك فارحم

فقال: فهذا كلام عاقل يضع الشئ موضعه ويستعمله فى أبانه ، ليس كمن قال وهو فى زماننا ....

جفخت وهم لا يجفخون ..... البيت

فأشمت عدوه بنفسه [١] .

وواضح أن أبا هلال يبالغ فى ذم بيت المتنبى ، وليس هذا مجال مقارنة بين أبياته التى ذكرها ، ولكننا نلمح نوعاً من عدم الموضوعية ، والعدالة فى النقد ، يرجحه أنفَة العسكرى مـــن ذكر اسم الشاعر ... وسوف يأتى بيان السبب فى هذا الجنوح وعدم التمحيص فى النقد .

وممـــن عـــاب هذا البيت " ابن سنان الخفاجى " فى سر الفصاحة [٢] والقاضـــى الجـــرجانى فى " الوساطة " [٣] وأبو منصور الثعالبى فـــــــــــــى " اليتيمة " [٤] أما صاحب " الصبح المنبى " فقد أورد هذا البيت فى سياق استدلاله على جمع المتنبى فى قصيدة واحدة بين الجيد الفائق الحسن وبين الردئ الساقط أو على حد تعبيره هو : جمع فيها بين " الشذرة والبعرة والدرة والأجرة " .

قال بعد أن أشار إلى موطن الحسن فى القصيدة : " ثم قال وتوحش ، تبغض ما شاء الحاسد : جفخت وهم ..... البيت " .

ثم إنه لم يكتف بهذا العيب ، بل أشار إلى عيب آخر فى البيت هو استعمال الشاعر لكلمة جفخت ، مكان فخرت .. وهى بمعناها و " الأولى مرة على السمع إذا سمعها أقشعر منها ، والثانية حسنة رانقة ، ولو ضعت مكانها لما أختل وزن البيت " .

فالشاعر مؤاخذ من وجهين :

---

(١) الصناعتين ص ٧٦ .
(٢) سر الفصاحة ص ١٠١ ، ١٠٣
(٣) الوساطة ص ٨٩ .
(٤) يتيمة الدهر ١٨٦/١ ـ ١٨٩ .

أحدهما : أنه استعمل القبيح ، والآخر : أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنه[١]

قراءة ثانية لبيت الشاهد :-

بعد بيان رأى بعض علماء البلاغة فى بيت الشاهد ، قد يكون من المفيد ـ قبل بيان السر وراء هذا التعقيد إلقاء الضوء على طريقة بعضهم فى اختيار شواهد المتنبى البلاغية - وإذا بدأنا بالعسكرى وجدناه يختار شواهده على خلفية من خصومته للشاعر ، فهو لا يذكره فى كتابه إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح فتتبع سقطات المتنبى وشغل نفسه بتتبع مساوئه ، لأنه كان على علاقة حميمة بأكبر خصوم المتنبى وهو " الصاحب بن عباد " .... وقد وصلت هذه العلاقة بأبى هلال إلى درجة أن يأنف من ذكر أسم الشاعر كما سبق ولكن القضية تكمن فى أن ما أخذه العسكرى على الشاعر بعين السخط ظل يلاحقه فى جميع العصور ، فلا يكاد يخلو كتاب من كتب البلاغة والنقد من الإشارة إلى تعسف المتنبى وتعقيده على نحو قريب مما ذكره العسكرى بلا نقد ولا تمحيص .

وإذا أردت شاهداً على ذلك دون أن نذهب بعيداً عن موضوعنا ، فقارن بين نقد العسكرى ، ونقد البديعى لبيت الشاهد ، وطابق بين قول الأول : " فأشمت عدوه بنفسه " وقول الآخر : " وتوحش وتبغض ما شاء الحاسد " .... وما يدل عليه ذلك من شدة التقارب وقوة الاحتذاء ، وما يشعر به ذلك من قلة المراجعة والتمحيص ، مما يدل على أنها فكرة بدأت عند العسكرى ثم تناقلها بعض النقاد فى كتبهم .

أما ابن سنان الخفاجى فقد كان متأثرا ـ أيضاً ـ بالصاحب ابن عباد ، لذا كان يختار شواهد المتنبى من كتب خصومه ، وليس من ديوانه حتى بدأ كتابه أقرب إلى كتب المخاصمات الأدبية منه إلى البلاغة أو الفصاحة ـ كما يذكر بعض الدارسين ـ [٢] .

وهذا كلام موثق بأدلة إحصائية ، حيث أحصى له الباحث تسعة من شواهده المأخوذة من شعر المتنبى فوجدها فى ذلك الكتاب معلقا عليها بأسلوب لا يختلف عنه أسلوب الخفاجى أحياناً وخمسة شواهد أخرى على الأقل مأخوذة من الرسالة الحاتمية ، وخمسة أخرى غير هذه وتلك مذكورة فى ما أحصاه القاضى الجرجانى من العيوب المنسوبة إلى المتنبى .

---

[١] الصبح المنبى ص ٣١٢ .

[٢] ينظر : مقال الشاهد الشعرى فى البلاغة العربية د / مصطفى الجوزى مجلة الفكر العربى معهد الإنماء العربى بيروت ـ لبنان ص ٧٢ .

ثم يضـــيف الباحث : من المحتمل أننا لو استقصينا سائر كتب المخاصمات والنقد ... لظفرنا بسائر المآخذ التى عددها الخفاجى " .[1]

ويكفينا هذا الحد لبيان كيف كان بعض البلاغيين يختارون شواهدهم وأمثلتهم مما يحتم ضرورة مراجعتها وتمحيصها وإعادة النظر فيها .

وعـــند إعادة النظر فى بيت الشاهد بعيداً عن المقولات السابقة نلاحظ أن الشاعر أجرى الأمر فيه على غير المألوف فى العادة فان العادة جارية على أن الإنسان يفتخر بصفاته وشمائلـــه ، والعرف قاض بأن يتيه الإنسان بشيمه وأخلاقه .... ولكن الأمر عند هؤلاء الممدوحين على خلاف ذلك ... فهم لشرفهم وتميزهم عن سائر الناس لا يفتخرون بهذه الخلائق والشيم ، بل هى التى تفتخر بهـــم .

فما يفتخر به الناس من كريم الصفات ، وحميد الخلال لا يفتخر بها ممدوحو المتنبى ، بل إنما تستمد شرفها ورفعتها من اتصافهم به .

ألســـت معى أن هذا المعنى ـــ على طرافته وروعته ـــ معنى جاء على غير القياس فهو وضع غير مألوف فى المديح وغير متعارف لدى الناس لهذا عبر عنه الشاعر بأسلوب غير مألوف لتحكى غرابة المبنى غرابة المعنى وليجانس لفظه معناه فالتقديم والتأخير والفصل على غـــير القـــياس يجرى مجرى افتخار هذه الصفات بهؤلاء الممدوحين فى إجراء الأمر على غير العادة ولعل ما يعضد هذا المعنى قوله فى البيت قبله : —

ستروا الندى ستر الغراب سفاده فبدا وهل يخفى الرباب الهاطل

فكتم المعروف حتى يظهر لكثرته أمر غير مألوف فى الطبائع وغير مشهور فى واقع الناس فهو معنى غريب جاء على غير العادة كالبيت محل الشاهد .

****

ومما يجرى هذا المجرى قوله فى القصيدة نفسها :—

الطيب أنت إذا أصابك طيب والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

يقـــرر الشـــاعر هنا أن ممدوحه أطيب من الطيب وأطهر من الماء فهو الذى يطيب الطيب ويطهر الماء ، ودعوى قلب التشبيه وادعاء أن الممدوح أصل فى الصفة دعوى عريضة لدى الشعراء وقد أورد البلاغيون هذا البيت شاهداً على التعقيد .

---

[1] السابق ص ٧٢ ، ٧٣ .

موطن التعقيد فى البيت :-

أخذ البلاغيون على الشاعر هنا تعسفه فى اللفظ وإجراءه على غير المتعارف عليه فى التركيب فقدم وأخر وفصل بين المتلازمين بصورة أدت إلى غموض المعنى والتباسه وتعقيد اللفظ والتوائه ، فالشاعر هنا فصل بين المبتدأ والخبر لأن " الطيب " مبتدأ و " أنت " مبتدأ ثان و " طيبه " خبر المبتدأ الثانى ، وهما خبر المبتدأ الأول .

وترتيب البيت : الطيب أنت طيبه إذا أصابك .

أمـــا الشطر الثانى : فعلى رواية رفع " الماء " يكون إعرابها إعراب الشطر الأول وتقديره : والماء أنت الغاسله إذا اغتسلت .[1]

وعلى رواية النصب فإن " الماء " منصوب بفعل مضمر دل عليه الغاسل تقديره : وتغسل الماء إذا اغتسلت .

قال ابن جنى : لأن الصلة لا تعمل فيما قبل الموصول ألا ترى أنه لا يجوز زيداً أنت الضارب [2] .

آراء البلاغيين فى بيت الشاهد :-

انتقد كثير من علماء البلاغة هذا البيت لأن لفظه لا يفصح عن معناه إلا بعد تقديم وتأخير ، وإعادة شئ من الكلام المحذوف ... كما وضح ذلك عند بيان موطن التعقيد .

فانـــتقد صاحب " الوساطة " هذا البيت ، ووصفه بالتعسف فى اللفظ ، وذكر أنه مأخوذ من شعراء قبله ، فهو معنى ليس له ، بل هو مسبوق فيه ، ومع ذلك تعسف والتوى فى صياغته [3] .

وذكره الإمام عبد القاهر ضمن شواهده على فساد النظم ، وذكر أن هذه الأبيات لا يخالف أحد فى التوائها وفساد نظمها ، بسبب ما صنع الشاعر فى تقديم وتأخير وحذف أو إضمار أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه ، ولا يصح فى أصول علم النحو ... [4] .

كما انتقده أبو منصور الثعالبى ، ووصفه بالتعسف فى اللفظ ، وأشار إلى أن صياغة البيت وتركيبه لا تدل دلالة واضحة على المعنى المراد ، وفضل عليه قول الشاعر :-

---

(١) شرح العكبرى ٢٦١/٣ واليتيمة ١٨٩/١ .
(٢) ينظر تفسير أبيات المعانى ص ٢١٦ – ٢١٧ ، وشرح الواحدى ٢٧١/١ .
(٣) الوساطة ص ٨٩ و ص ٣٩٠ .
(٤) دلائل الإعجاز ص ٨٣ ، ٨٤ .

وتزيدين طيب الطيب طيباً إن تمسيه أين مثلك أينا [1]

قراءة ثانية لبيت الشاهد :-

أراد الشاعر ـــ هنا ـــ أن يبالغ فى مدح الممدوح فادعى أن الممدوح هو الذى يمد الطيب بالرائحة ، وهو الذى يطهر الماء .

ومعلـــوم أن الطيب هو الذى يطيب الإنسان ـــ الممدوح وغيره ـــ وأن الماء هو الذى يظهر الإنسان كذلك .

ولكـــن شـــاعرنا بالغ فى معناه وقلب الصورة المرسومة فى الأذهان وخالف الواقع المركوز فى الطبائع ، حين نزع من عنصرى الطيب والطهر خاصيتهما وادعاهما للممدوح .

فالأنطاكى فى خيال الشاعر لم يعد ذلك الرجل الذى يضع الطيب ليتطيب ولا الماء ليتطهر ، بل صار طيباً يستمد منه الطيب رائحته ، وماء يستمد منه الماء طهره .

ودعوى المبالغة وقلب الصورة ، وجعل الممدوح أصلا فى الصفة دعوى واسعة لدى الشعراء قديماً وحديثاً .

وهذه الدعوى وإن كان الشاعر قد قربها من الواقع فى محاولة منه لإقناع سامعيه بما يصوره ، إلا أنها مع ذلك دعوى غريبة غير مألوفة ، ولا جارية على عرف وعادة .

فالعادة جارية على أن الإنسان يضع الطيب ليتطيب ، ويستعمل الماء ليتطهـــر .

أما أن يكون ممدوح الشاعر هو الذى يطيب الطيب ، ويطهر الماء ، فذلك هو وجه الغرابة فجاءت صياغة الشاعر فى صورة غير مألوفة وغير جارية على قياس لتحكى وتشاكل تلك الغرابة فى المعنى الذى تضمنه البيت .

وهكذا وجدنا أن تلك الأبيات التى استشهد بها البلاغيون على التعقيد اللفظى إنما تضمنت أموراً غريبة غير مألوفة لم تجر على عرف ، ولم تعهد فى واقع الناس .

فافتخار الشمائل والصفات بالممدوح فى البيت الأول واستمداد الطيب الرائحة من الممـــدوح ، وأخـــذ الماء الطهر منه فى البيت الثانى ... كل ذلك جاء على غير العادة ، فجاءت الأبيات على ما جاءت عليه من إغراب فى التقديم والتأخير ، دلالة على إجراء الأمر على غير العادة .

---

[1] اليتيمة ١٨٩/١ .

ولعل من جمال المناسبة ودقة التناغم لدى الشاعر مجيؤها فى قصيدة واحدة يربطها خيط من الغرابة وعدم الإلف ، وجرى الأمر على غير قياس ..

ولعل ما يعضد ذلك ويؤكده :-

١ - مطلع القصيدة وهو قوله :-

لك يا منازل فى القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

بمـــا تضمن من معنى غريب غير معهود، هو بقاء الشاعر على عهده ، حيث إن منزلة أحبابه فى قلبه ما زالت عامرة ، رغم اندراسها وخرابها على أرض الطبيعة والواقع .

فكان هذا المطلع ينبئ عن مقصد الشاعر وغرضه ، لا سيما فى حق رجل كالمتنبى ، لم يعهد عليه مثل هذا الصدق والوفاء فى الحب ، ولا الشكوى والمعاناة من الفراق وآلامه .

٢ - تتميـــز هذه القصيدة ـــ دون غيرها من شعر المتنبى ـــ بظواهر لغوية جارية على غير قياس أهل اللغة ... من ذلك :-

- وقوع حرف النداء قبل الفعل .... فى قوله :-

يا أفخرُ فإن الناس فيك ثلاثةمستعظم أو حاسد أو جاهل

أراد يـــا هذا أُفخر ، فحذف المنادى وأعقبه بالفعل ، وذلك على غير قياس أهل اللغة الذين يقررون اختصاص النداء بالدخول على الأسماء ... وإن كان ثمة خلاف فى المسألة .

- حذف نون " من " فى قوله :-

ولديه ملعقيان والأدب المفا د ومحياة وملممات مناهل

أراد من العقيان ومن الحياة ومن الممات ، فحذف النون لسكونه وسكون اللام .

- حذف " أن " المصدرية الناصبة فى قوله : -

يدرى بما بك قبل تظهره له من ذهنه ويجيب قبل تسائل

أراد قـــبل أن تظهره له ، وقبل أن تسائل ... قال العكبرى : فلما حذف حرف النصب رد الفعل إلى الرفع [1] .

وهكذا يجمع القصيدة خيط من عدم الإلف والغرابة ، وعدم الإجراء على قياس فى معانيها وألفاظها ، وكأنه يشير بذلك إلى غرابة ممدوحه وتفرده فى خلائقه وشمائله .

---

[1] شرح العكبرى ٢٥٦/٣ .

بل إنه رمق سماء هذا المعنى فى قوله :-

لو طاب مولد كل حى مثله ولد النساء وما لهن قوابـــل
لو بان بالكرم الجنين بيانه لدرت به ذكر أم أنثى الحامل

***

ومما يندرج فى شواهد التعقيد اللفظى لنفس الغرض :-

لا تعدل المرض الذى بك شائق أنت الرجال وشائق علاقها [1]

يقـــول : إنـــنا لا نلوم المرض الذى ألم بك لأنك تشوق الرجال وتشوق علاقها ، أى تجعلها تشتاق إليك ، والبيت من قصيدة له فى مدح أبى أيوب أحمد بن عمران مطلعها "-

سرب محاسنه حرمت ذواقها دانى الصفات بعيد موصوفاقها

والتعقيد فى البيت ناشئ من التقديم والتأخير والفصل بين المتلازمين فـــ (شائق) وأنت : مبـــتدأ مؤخر ، والرجال مفعول شائق ، والتقدير : أنت شائق الرجال وعلاقها ، فلا تعذل المـــرض الـــذى بك وهو تقدير لا يفصح عنه تركيب البيت إلا بعد إعمال الفكر وإعادة النظـــر .

وقد نبه شراح الديوان إلى ما فى هذا البيت من تعقيد والتواء ، فقد قرر العكبرى بعـــد شرحه للبيت : أنه قلق السبك [2] ولكن عند التدقيق فى معنى البيت نجده تضمن علة غريبة فى تعليل مرض الممدوح وعدم عذل المرض ، فهو قد اشتاق إلى الممدوح ، كما يشتاق إلـــيه جمـــيع الـــناس فـــزاره مثلهم .. وقد كان الممدوح مريضا حينما مدحه المتنبى بهذه القصيـــدة .

وهـــذه العلة التى تندرج ضمن ما يسمى لدى البلاغيين بـــ (حسن التعليل) تبدو غـــريبة غير مألوفة ، لذا جاء التعبير عنها بأسلوب غريب غير مألوف ، لا تسفر العبارة عنه إلا بعـــد تقديم وتأخير فى الألفاظ فهو قد جعل المرض يشتاق إلى الممدوح كما يشتاق إليه الناس ، فهو يزوره مثلهم ، وينتقل إليه عنهم شوقاً إليه ... فلا ينبغى لنا أن نلوم المرض لأنه معذور فى ذلك .

وهذا ما أكده الشاعر فى قوله بعد ذلك : -

ومنازل الحمى الجسوم فقل لنا ما عذرها فى تركها خيراقـــا

---

[1] ديوانه ٢٣٣/١ .
[2] شرح العكبرى ٢٣٣/١ .

أعجبتها شرقا فطال وقوفها لتأمل الأعضاء لا لأذاقها

وبذلت ما عشقته نفسك كله حتى بذلت لها صحاقها

لذا جاء البيت على ما جاء عليه من تقديم وتأخير وفصل ؛ دلالة على غرابة معناه وعدم إلفه فى دنيا الناس ، وأنه جار على غير العادة فالمعنى الغريب محتاج إلى تعبير غريب .

٣ - الالتواء فى النظم دلالة على التواء الأمر :-

يقول المتنبى :-

المجد أخسر والمكارم صفقة من أن يعيش لها الهمام الأروع [١]

يقول : إن المجد والمكارم حظهما أنقص من أن يعيش المرثى : فقد كان هو الجامع لشملها ، الحافظ لعهدها .

يقول الواحدى : صفقة المكارم والمجد أخسر وحظهما انقص من أن يعيش لهما هذا المرثى ، يعنى أن المكارم كانت تحيا به فلخسرانها كانت ميتة [٢] .

والبيت من قصيدة للشاعر يرثى أبا شجاع فاتكاً : .. مطلعها :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصى طيع

موطن التعقيد فى البيت : -

التعقيد فى البيت ناشئ من الفصل بين " أخسر " وبين " صفقة " وبين "المجد والمكارم " .

يقول العكبرى : إذا جعلت ، المجد والمكارم أخسر صفقة ، أختل لأنك تفصل بالمكارم بين " أخسر " وبين " صفقة " وهى منصوبة بـ " أخسر " التى هى عطف على " المجد " وهذا غير جائز ، لأن " صفقة " تحل من " أخسر " محل الصلة من الموصول ، ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول : زيد أحسن عمر ووجها [٣] .

فتقدير البيت وترتيبه الصحيح ... المجد والمكارم أخسر صفقة من أن يعيش لها الهمام الأروع ، ولكن التقديم والتأخير والفصل على غير قياس أدى إلى نوع من الالتواء والتعقيد واضح .

---

[١] ديوانه ٢/٢٧١ .
[٢] شرح الواحدى ٢/٧١٣ .
[٣] شرح العكبرى ٢/٢٧١ .

آراء البلاغيين فى بيت الشاهد :-

واضح من كلام العكبرى نقده لهذا البيت وحكمه عليه بالاختلال والالتواء .

وممن ارتأى هذا الرأى ابن سنان الخفاجى ، حيث مثل بالبيت للتقديم والتأخير الذى يؤدى إلى فساد المعنى والإعراب ، قال : فأما قول أبي الطيب : المجد أخسر ... البيت ، فجار هذا المجرى وفيه تقديم وتأخير وفصل بين الصلة والموصول ، وتقديره ، المجد والمكارم أخسر صفقة [1] .

قراءة ثانية لبيت الشاهد :-

نظم المتنبى هذه القصيدة فى رثاء أبي شجاع فاتك ، وقد سمع بموته بعد فراره من مصر .

وقد كان للمرثى فى قلب المتنبى منزلة خاصة ، فقد كان يود اللحاق به والعيش فى كلفه ، لولا تضييق كافور عليه ، ودوام مراقبته .

وقد كان يجمع الراثى والمرثى بغض كافور ، وتمنى موته ليتولى أحدهما إمارة مصر .

لذا فقد رثاه حين موته رثاء حارا ، وبكاه بكاء صادقاً ، وهذا ما صوره فى مطلع القصيدة التى رمى فيها بالغرض حيث يقول :-

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصى طيع

يتنازعان دموع عين مسهد هذا يجيء بها وهذا يرجع

النوم بعد أبي شجاع نافر والليل معى والكواكب طلع

وبمراجعة سياق القصيدة ، وجد أن الشاعر لم يقتصر فيها على رثاء أبي شجاع ، وإنما ضمن ذلك هجاءه كافوراً ، وبيان مثالبه عن طريق التقابل بين صفاتهما .

ولقد كان أبو شجاع بالمنزلة التى ذكرت من المتنبى ، أما كافور فقد كان المتنبى يرى أن مدحه له من الأوضاع المقلوبة ، فما كان ينبغى لمن كان مثل المتنبى أن ينحط من عليائه ويهوى ليمدح من كان مثل كافور إنه لاشك مركب صعب اضطر الشاعر إلى ركوبه ، فانساق إلى ذلك كارهاً لا طائعاً .

لذا فإن التعقيد فى نظم البيت يحكى نظرة المتنبى إلى الزمن الذى حرمه من مثل أبي شجاع ، بينما يعيش عدوه وغريمه عيشة القواد والولاة ... إنه لاشك ــ من جهة نظر

---

[1] ديوانه ٢/٢٥٢ .

الشـــاعر ـــ الـــتواء فى تصاريف الزمن وتعقيد فى مجرياته ... فكان الالتواء فى اللفظ ، والتعقيد فى تركيبه إشارة إلى ذلك ... وهذا ما أكده الشاعر فى قوله : ـ

قبحاً لوجهك يا زمان فإنه وجه له من كل قبح برقـــــع
أيموت مثل أبي شجاع فاتك ويعيش حاسده الخصي الأوكـــع
أبقيت أكذب كاذب أبقيته وأخذت أصدق من يقول ويسمع
وتركت أنين ريحة مذمومـــة وسلبت أطيب ريحـــه تتضـــوع
أن مقطعه حوالى رأســـــه وقفا يصيح بها ألا من يصفـــــع

إنهـــا لمفارقة عجيبة تلك التى صنعها الزمن بالشاعر ، ففى موت أبى شجاع موت لرجاء الشاعر وكسر لنفسيته وزلزلة لكيانه وفى بقاء كافور استثارة لحنقه ، واستدعاء لكامن غيظه وحقده .

ولكن لا عجب فى هذا ، فهكذا طبيعة الدهر وشأن الزمان ، لا تصفو فيه الحياة إلا للجاهل ، أما الماجد والعالم فالدهر لهما معاند ...

وما قصد بذلك إلا كافوراً حيث يقول :ـ

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى فيها وما يتوقـــع
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

ثم ينفث زفرته على الجميع :

لا قلبت أيدى الفوارس بعده رمحاً ولا حملت جواداً أربـــع

إذا فقـــد كـــان التعقيد والالتواء فى نزم البيت محاكاة ومجانسة لالتواء الزمن فى تصرفه ، وتعقيده فى مجرياته ، حيث يموت الحبيب الذى يراد حياته ، ويبقى الغريم الذى يتمنى زواله

٤ ـ تكلف اللفظ لتكلف المعنى : ـ

يقول المتنبى : ـ

ولذا اسم أعطيه العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل [1]

البيت من قصيدة للشاعر يمدح بها القاضى أبا الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكى مطلعها

لك يا منازل فى القلوب منازل أقفرت أنت وهن منك أواهل

---

[1] سر الفصاحة ١٠١

والشاعر فى هذا البيت يريد أن يبين أثر العيون ، وأنها قد تمكنت من اختراق قلبه ، شأن السيف الماضى الذى ينفذ إلى الفؤاد فلما ذكر تلك المشابهة بين السيف والعين ، ذكر أن جفن العيون مأخوذ من جفن السيف ، لأنها تعمل عمله فى التأثير .

فكأنه يريد أن يقول : لأن العيون عوامل عمل السيوف سميت أغطيتها جفوناً .

فهل يفهم هذا المعنى عند قراءة البيت ، وهل أداه الشاعر فى قالبه اللغوى المناسب ؟؟ ! .

مواطن التعقيد فى البيت :-

نلحظ أن معنى هذا البيت — رغم ما يختبئ خلفه من معنى رائق — لا تفصح عنه ألفاظه ، إلا بعد تقديم وتأخير ، وإعادة ترتيب لألفاظه وما يتبع ذلك من جهد وعناء .

فالشاعر هنا قدم معمول خبر إن عليه ، فالتقدير : " من أنها عوامل عمل السيوف " مما ألقى على البيت ظلا من التعقيد والالتواء والغموض .

هذا هو السبب المشهور عند النقاد وشراح الديوان ، ولكن بعض الباحثين يضيف أموراً أخرى هى من أسباب التواء البيت :-

- أن المشار إليه بقوله " لذا " فيه جفاء ، لأنه ليس فى البيت السابق تصريح بعمل العيون ، ولهذا اضطر إلى بيان المشار إليه بقوله : (من أنها عمل السيوف عوامل) فـ (من) الخ بدل من (لذا) ومبين له .

- أنه استعمل كلمة أسم بمعنى " التسمية " وأضافها إلى المفعول الأول ونصب المفعول الثانى وهو جفونها ، وهذا الاستعمال غير مألوف .

- إضافة جفون إلى الضمير ، مع أنه لا حاجة إلى هذه الإضافة [1].

آراء البلاغيين فى البيت :-

لم يرق هذا البيت لكثير من علماء البلاغة والنقد ، للسبب الذى سبق عرضه مع أن أحدا منهم لم يتعرض لمواطن التعقيد وسببه ، فالقاضى الجرجانى يرى أن المتنبى قد توصل إلى معنى جميل أحسن استخراجه ، ولكن اللفظ لم يساعده[2].

والإمام عبد القاهر الجرجانى يذكر هذا البيت ضمن شواهده على فساد النظم بسبب ما صنع الشاعر فيها من مخالفة القواعد والأصول فالشاعر لم يرتب لفظه ، الترتيب

---

(١) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير ص ١٢٦ .

(٢) الوساطة ص ٨٩ .

الذى يمثله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع إلى أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه من غير طريقة وبفكر زائد على المقدار الذى يجب فى مثله ، وكدته سوء الدلالة وأودع المعـــنى له فى قالب غير مستو ولا مملس ، فكان كالغائص فى البحر يحتمل المشقة العظيمة ، ويخاطر بالروح ، ثم يخرج بالخرز [١] .

فالإمام يرى أن عيب هذا البيت راجع إلى سوء الترتيب اللفظى لألفاظه مما أدى إلى غياب السلامة اللغوية ، والجمال الشكلى عن نظم البيت وبالتالى إلى فساد المعنى .

أما ابن معصوم فقد رفض بيت المتنبى وذمه ،وفضل عليه بيتا آخر ... يقول ابن معصوم فى حسن الاتباع : " هذا النوع عبارة عن أن يأتى المتكلم إلى معنى فيحسن إتباعه فيه ، بحيث يستحقه بوجه من الوجوه التى توجب استحقاقه له إما بحسن سبك أو قصر وزن ، أو تمكن قافية ، أو زيادة وصف ، أو تتميم نقص أو تحلية بحلية من البديع يحسن بمثلها النظم وتوجب الاستحقاق ..

قال أبو الطيب : ولذا اسم أغطية ... البيت ..

وأحسن ابن سبط التعاويذى اتباعه فقال :-

بين السيوف وعينيه مشاركه من أجلها قيل للأغماد أجفان

فإنه أخذ المعنى من قطعة خشب وأودعه سبيكة ذهب [٢] .

ويشارك بعض الباحثين ابن معصوم رأيه فى تفضيل بيت التعاويذى على بيت المتنبى ، والســـبب فى ذلـــك أن الأول عكس وادعى أن أسم الجفون مختص بأغطية العيون ، وأن أغطية السيوف سميت جفوناً لمشاركتها ى قتل الرجال[٣] .

وممن أثنى على معنى هذا البيت وانتقد صياغته صاحب الصبح المنبى [٤] .

قراءة ثانية لبيت الشاهد : -

وضح مما سبق أن بيت الشاهد لم يرق لكثير من علماء البلاغة والنقد لما فيه سوء الترتيب ، وفساد النظم .

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٢٩ وما بعدها / ريتر .
(٢) أنوار الربيع ١١/٦ .
(٣) دراسات تفصيلية لبلاغة عبد القاهر ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٤) الصبح المنبى ص ٣١٠ .

وأرى أن تكلف الشاعر فى غزلياته هو السر وراء سوء العبارة فى البيت فلا شك أن تكلف المعنى يؤدى إلى تكلف العبارة ٠٠ والعكس بالعكس ٠

ولكى نؤكد هذا الكلام فلا بد من إلقاء نظرة سريعة على مذهب المتنبى فى الحب من خلال ديوانه ، ثم نظرة أخص على قصيدته تلك ، فالمتنبى فى شعره الغزلى لم يكن يصدر عن عاطفة مشبوبة صادقة ولم يكن يعشق حتى يصف ما يلاقيه من حرمان وعناء ، بل كانت المسافة شاسعة بينه وبين قلوب النساء ، وسوف أسوق بعض الشواهد التى تعضد ذلك ٠

من ذلك قوله :

وللخود منى ساعة ثم بيننـــا ... فلاة إلى غير اللقاء تجـــاب
وما العشق إلا غرة وطماعـــه ... يعرض قلب نفسه فتصـــاب
وغير فؤادى للغوانى رميـــة ... وغير بنانى للرخاخ ركـــاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة ... فليس لنا إلا بهن لعـــــاب [1]

والأبـــيات بمـــا حفلت به من صور المبالغة وأساليب القصر والكناية ، تبرهن على بعد المساحة بين قلب شاعرنا وبين العشق ٠

وإذا كـــان لابد من الحب فليكن عشقاً للمجد والسيادة ، فهو يعشق عشقاً غير مألوف يصوره فى قوله :-

تقولين ما فى الناس مثلك عاشق ... جدى مثل من أحببته تجدى مثلى
تحب كنى بالبيض عن مرهفاتـــه ... وبالحسن فى أجسامهن عن الصقل
وبالسمر عن سمر القنا غير أننى ... جناها أحبائى وأطرافها رسلـــــى
عدمت فؤاداً لم تبت فيه فضلة ... لغير الثنايا الغر والحدق النجـــل [2]

وقد كان هذا أسلوبا للشاعر فى حديثه عن الحرب ، بل إنه لا ينسى هذه الطريقة حينما أراد أن يصور ما صنعت به الحمى [3] ٠

والمتنبى لم يتشبب فى امرأة بعينها ، ولم يفرد قصيدة واحدة فى الغزل والنسيب ، بل كان يعمد أن يجعل الجزء الأول من مدائحه فى الغزل ، وجزء أخر فى الحكم ٠٠٠ ضناً منه أن يغرق فى مدح أحد ، وصوناً لكرامته من الابتذال فى مجالس الممدوحين ، ثم هو كذلك فى

---

[1] ديوانه ١٩٢/١ ، ١٩٣
[2] ديوانه ٢٨٩/٣ ، ٢٩٠
[3] ديوانه ١٤٨/٤ ٠

الحب ، يصون كرامته ولا يعرف الذل فى الشوق والهيام ، وغاية ما يمكن أن يتقرب به إلى المرأة أن يقول لها :-

زودينا من حسن وجهك مادا م فحسن الوجوه حال تحـول
وصلينا نصلك فى هذه الدنيا فإن المقام فيها قليـــــل
من رآها بعينها شاقة القطان فيـــها كما تشـوق الخمـــول
إن تريني أدمت بعد بيـاض فحميد مـــــن القناة الذبـــول [1]

بـل حتى مقدماته الغزلية التى صدر بها معظم قصائده ، كانت تأتى متكلفة ، لأنه كان يحتشد ويتعمل ويتصنع فيها ، فتجئ غريبة نافرة ، سيئة التركيب ، لا تسفر عما وراءها من معـنى إلا بعد جهد جهيد ، وتأويل بعيد ، لأن الشاعر لم يتشبع بالمعنى ، ولم يتلئ فؤاده به وإذا نظرنا بصورة أخص إلى قصيدته التى منها بيت الشاهد وجدنا ما يعضد ذلك ويؤكده ، حيث حفلت أبياته الغزلية بالتصنع والتعمل الذى يبدو فيما يأتى :-

١- سوء ترتيب العبارة ، وفساد نظم البيت ، كما صنع فى بيت الشاهد من ذلك قوله :-

اللاء أفتكها الجبان بمهجتى وأحبها قرباً إلى الواصل

يقول : إن أفتك هؤلاء الظباء بمهجتى الجبان أى الذى ينفر من الرجال خوفاً وحياء وأحبهن إلى قرباً البخيل بالوصل .

فـ (اللاء) من " الظباء " فى البيت الذى قبله :-

تخلو الديار من الظباء وعنده من كل تابعة خيال زائل

والتعقـيد هنا ناشئ من الفصل بين المبتدأ (أفتكها) ومتعلقة (بمهجتى) بالخبر الذى أقحم بينهما ، فلو أمكنه أن يقام بمهجتى لكان أوجه .

يقول الخطيب : الباء متصلة فى المعنى بأتكها ، إلا أنه لا يمكن تعلقها به ، لأنه قد أخـبر عنه بقوله : " الجبان " ومحال أن يخبر عن الاسم قد بقيت منه بقية ، فلما امتنع ذلك علق الباء بمحذوف ، دل عليه " افتكها" فكأنه أضمر بعد ذكر الجبان ، فتكت بمهجتى [2] .

٢ - وقـد حفلـت تلك المقطوعة الغزلية بالصور المصنوعة التى تعمل لها الشاعر فجاءت باردة لا تفصح عن عشق صادق ، من ذلك قوله :-

دون التعانق ناحلين كشكلتى نصب أدقهما وضم الشاكل

---

[1] ديوانه ١٤٩/٣ ، ١٥٠ .
[2] شرح العكبرى ٢٥١/٣ .

وهـــى طـــريقة اختطها بعض الشعراء لأنفسهم ، وهى وإن كانت تروق لكثير من النقاد لا سيما الذين يعنون بالصنعة [١] ، إلا أنها لا تدل على تجربة صادقة ، وعاطفة ملتاعة ... من مثل قول الشاعر :-

إنى رأيتك فى نومى تعانقنى كما تعانق لام الكاتب الألفا

ولـــك أن تحكـــم على هذه الصورة التى جاءت من خلال ما يسمى لدى البلاغيين بحسن التعليل :

كافأننا عن شبههن من المها فلهن فى غير التراب حمائل

ثم هـــو يفصـــح فى أخر تلك المقطوعة عن مذهبه فى العشق ، وأنه ـــ عنده مجرد لذه ينبغى اغتنام الفرصة فى تحقيقها .

انعم ولذ فللأمور أواخـــر أبداً إذا كانت لهن أوائـــل

ما دمت من أرب الحسان فإنما روق الشباب عليك ظل زائل

للهو أونه ثمر كأنفـــــــا قبل يزودها حبيب راحـــل

وقد شغل النقاد قديماً وحديثاً بتحقيق قضية غزل المتنبى بين الصدق والزيف ، ومن أشـــهر مـــن تناول هذا فى الحديث الأستاذ محمود شاكر ، ود / محمد عبد الرحمن شعيب ، ولهمـــا طـــرفا نقـــيض فى هذه القضية ، فأولهما يثبت له عشقاً بخولة اخت سيف الدولة ، وثانـــيهما ينفـــى هذا تماماً ويؤكد ما ارتضيته فى بحثى هذا والخوض فى هذه القضية وتحقيق الأقوال فيها مما خرج عن دائرة البحث [٢] .

ومما يندرج تحت هذا الغرض قول المتنبى :-

قلق المليحة وهو مسك هتكها ومسيرها فى الليل وهى ذكاء [٣]

البـــيت من قصيدة يمدح فها أبا على هارون بن عبد العزيز الأوراجى الكاتب ، ومعنى البيت : أن المليحة مسك فإذا تحركت انهتك سترها ، وافتضح بتضوع رائحتها ، وهى شمس إذا سارت ليلاً أبصرها الناس .

---

(١) راجع الوساطة ص ٢٩٣ ، وأسرار البلاغة ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ت الشيخ شاكر .

(٢) ينظر المتنبى أ / محمود محمد شاكر ط المدنى ص ٣٣٣ ـ ٣٥٦ سنة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م والمتنبى بين ناقديه د / محمد عبد الرحمن شعيب ٣٣٤ ـ ٣٤٠ ط دار المعارف ثانية .

(٣) ديوانه ص١٣/١ .

موطن التعقيد فى البيت : —

يفصح المتنبى فى هذا البيت عن معنى جميل رائع ، هو أن رائحة هذه المحبوبة تعلن عنها ، وإشراقها يكشفها فى ظلام الليل الدامس ومن هنا أمن ذووها أن تخرج للزيارة ليلاً أو نهاراً ، كما عبر عن ذلك فى البيت قبله — وهو مطلع القصيدة : —

أمن ازديارك فى الدجى الرقباء إذ حيث كنت من الظلام ضياء

ولكن الشاعر أدى هذا المعنى المشرق بلفظ قلق ، وتعبير ملتو معقد ... وكان لسوء العبارة ، وفساد النظم أثر فى التقليل من وجه المبالغة التى حفلت بها الصورة ... والتى نشأت من خلال صياغة التشبيه فى صورته البليغة .

وترتيب البيت : قلق المليحة هتكها وهى مسك ، ومسيرها فى الليل هتك لها وهى ذكاء ، فـ (مسيرها) مبتدأ معطوف على قلق وخبره محذوف للعلم به كأنه يقول : ومسيرها بالليل هتك لها أيضا إذا كانت ذكاء [1] .

قراءة ثانية لبيت الشاهد :—

لاشك فى التواء نظم البيت رغم ما احتواه من معنى جميل رائق ، وما تضمنه من تصوير بيانى شائق وليس ثمة من سر إلا ما سبق بيانه من عدم صدق الشاعر فى كل غزلياته ، فكان يتكلف لها وتصنع فى نظمها فتجئ فى أسلوب معقد ملتو .

وقد سبق التعرض لمذهب الشاعر فى غزله ، وإذا ولينا وجهنا شطر هذه القصيدة ، لا نجد الأمر يختلف كثيراً .

فالمتنبى فى هذه القصيدة يوقع نفسه فى تناقض صارخ ، وتباين فى العاطفة واضح ، واختلاف فى موقفه من الحب لا يخفى على القارئ .

فبينما نراه يقول بعد أبيات المطلع التى سبق ذكرها ... :

وشكيتى فقد السقام لأنه قد كان لما كان لى أعضاء
مثلث عينك فى حشاى جراحة فحشاها كلتاهما نجلاء
نفذت على السابرى وربما تندق فيه الصعدة السمراء

---

[1] شرح الواحدى ١٩٣/١ ، والعكبرى ١٣/١ .

فهـــو هنا يشكو فقد ألم الفراق وجرح الأحبة ، ليس لأن جرح الأحبة غير ذى ألم ، بل لأن شـــاعرنا ـــ المضنى ـــ فقد الأعضاء نفسها من جناية الهوى عليه ، فقد أطلقت أعينها سهام لحاظها على جسده المضنى ، فأحدثت فيه جراحات واسعة اتساع عينها النجلاء .

لا نريد أن نقف عند جمال الصورة وسحرها بقدر ما نريد أن نقف عند بيان أثرها على الشاعر الذى يبدو هنا شخصاً ضعيفاً مريضاً ، لا يثبت أمام جراحات الهوى وآلامه .

فإذا تجاوزنا هذه الصورة وجئنا إلى قوله بعد ذلك مباشرة :

أنا صخرة الوادى إذا ما زوحمت وإذا نطقت فإننى الجوزاء

وإذا خفيت على الغبى فعـــاذر ألا ترانى مقلة عميـــــاء

فإننا نرى أنفسنا أمام إنسان صلب متماسك ، فيه من الصلابة والثبات ثبات الصخور ... وهى فكرة ـــ ولا شك ـــ تناقض الفكرة السابقة عليها .

فـــأى الشاعرين نصدق ؟ وأى الشخصين أقرب لشخصية شاعرنا ؟ ثم ما دلالة ذلك التناقض والاختلاف على صدق الشاعر فى غزله من عدمه ؟ .

إن دراسة لنفسية المتنبى ، وقراءة سريعة لسيرته ، تجعلنا نصدق الفكرة الثانية فهى فكرة تنادى على صاحبنا وتشعرنا بأنها وليدة عقله وذوب فؤاده ، بخلاف الأولى التى تبدو غريبة على شخص كالمتنبى كان موقفه من الحب ومن النساء على نحو ما ذكرت .

إذاً فالـــتكلف فى الغزل كان وراء التكلف فى نظم البيت ، وهو كثير فى غزليات المتنبى من مثل قوله :-

هراقت دمى من بى من الوجد ما بها من الوجد بى والشوق لى ولها حلف [1]

يقول : أـــراقت دمى بحبها تلك التى أجد بها من الحب ما تجد بى والشوق لى ولها ملازم .

ومعنى البيت ببساطة : إنى أحبها كما تحبنى وأشتاق إليها كما تشتاق لى ، فهل هذا المعنى البسيط يحتاج كل هذه الحذلقة والتعسف فى التعبير ، يقول ابن جنى : " لو أمكنه أن يقـــول : بى من الوجد بها ما بها من الوجد بى لكان أشد اعتدالاً ، لكنه للوزن حذف بعضه للعلـــم " [2] ، والبـــيت مـــن مقدمة غزلية فى قصيدة يمدح فيها أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضى المالكى ، ومنه قوله :

---

[1] ديوانه ٢٨٣/٢ .

[2] شرح العكبرى ٢٨٣/٢ والبرقوقى ٢٦/٣ .

قد علم البين منا البين أجفاناً تدمى وألف فى ذا القلب أحزاناً[١]

يقول : إن فراق الأحبة علم أجفاننا الدامية ـــ من طول البكاء أن يبتعد بعضها عن بعض ، كنى به عن إدامته السهر ... كما قال :

وفرق الهجر بين الجفن والوسن [٢]

وجعل الفراق يؤلف الحزن ، إغرابا فى الصنعة ولكن البيت جاء فى نظم معقد ، فـ (منا) حال من الأجفان مقدمة عليها والبين مفعول ثان لعلم مقدم ، وأجفاناً مفعول أول ، وتدمى صفة و (أجفاناً) كأنه قال (أجفانا دامية) فتقديم الحال على صاحبها ، وتقديم المفعول الثانى جعل البيت يبدو غريبا ملتويا ... والبيت مطلع قصيدة فى مدح أخيه أبى سهل سعيد بن عبد الله .

ومن ذلك قوله :-

كيف ترثى التى ترى كل جفن راعها غير جفنها غير راق [٣]

والبيت من قصيدة له فى مدح أبى العشائر الحسين بن على بن الحسين بن حمدان ومطلعها :

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقةً فى الماقى

يقول الثعالبى عن هذا المطلع : وهو ابتداء ما سمع بمثله ، ومعنى تفرد بابتداعه ، ثم شفعه بما لا يبالى العاقل أن يسقطه من شعره . [٤]

ومعنى البيت : أن هذه المعشوقة لا ترحم باكيا ، وكيف ترحمه وهى ترى كل جفن من الناس إلا جفنها سائل الدمع لهجرها فهى لا ترحم أحداً لأنها تظن الدموع فى أجفان العشاق خلقه . [٥]

معنى جميل رائق ، لو جاء فى أسلوب واضح غير ملتو ولا معقد وغير الأولى منصوب على الاستثناء ، والثانية على الحال .

وغيرها كثير مما سبق التعرض لها ويمكن أن يندرج ضمن هذا المقام مثل قوله :-

ففى تفرم الأولى من اللحظ مهجتى بثانية والمتلف الشئ غارمه [٦]

---

(١) ديوانه ٢٢٠/٤

(٢) شرح الواحدى ٢٧١/١ ، والبرقوقى ٣٥١/٤ ، ٣٥٢ .

(٣) ديوانه ٣٦٢/٢ .

(٤) يتيمة الدهر ١٨٥/١ .

(٥) شرح الواحدى ٣٨٤/١ والبرقوقى ١٠١/٣ .

(٦) ديوانه ٣٣٠/٣ .

وقوله :-

وما حاجة الأظعان حولك فى الدجى إلى قمر ماء واجد لك عادمه [١]

فالأبيات هذه قد تصنع لها الشاعر واحتشد لنظمها فجاءت غامضة لم تكشف عما وراءها من معنى إلا بعد شئ من الفكر والنظر فى ترتيب الألفاظ ، وذلك بسبب موقف الغزل الذى تكلفه الشاعر .

٥ - مقام الإغراب للتعمية على السامع :-

يقول المتنبى :-

أى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد [٢]

يقــول : كيف يكون آدم أبا البرية وأبوك محمد وأنت الثقلان ، يريد : أنت جميع الجن والإنس يعنى : تقوم مقامها فى الفضل والكرم ، وتجمع ما تفرق فيه من الشيم والخلائق .

والبيت من قصيدة يمدح بها شجاع بن محمد الطائى المنبجى مطلعها :-

اليوم عهدكم فاين الموعد هيهات ليس ليوم عهدكم غــد

موطن التعقيد فى البيت :-

فى البيت تعقيد لفظى ناشئ عن الفصل بين المبتدأ والخبر وهما أبوك محمد ، وتقديم الخبر على المبتدأ (الثقلان أنت) وهو تقديم قد يدعو إلى اللبس ، فضلا عن أنه لم تدع إليه ضرورة ، فترتيب البيت الصحيح : كيف يكون آدم أبا البرية وأبوك محمد وأنت الثقلان .

آراء البلاغيين فى بيت الشاهد :-

أورد العلماء قديماً وحديثاً هذا البيت شاهداً على التعقيد ... يقول العكبرى : فى هــذا البــيت تعسف ، لأنه فصل بين المبتدأ والخبر بجملة ابتدائية أجنبية وتقدير البيت : كيف يكون آدم أبا البرية وأبوك محمد والثقلان أنت [٣] .

كما أخذه عليه صاحب الوساطة [٤] ، وأورده صاحب " الصبح المنبى " ضمن ما يؤخذ على أبى الطيب للسبب نفسه [٥] .

---

(١) ديوانه ص ٣٣٠/٣ .
(٢) ديوانه ٣٤٠/١ .
(٣) شرح العكبرى ٣٤٠/١ .
(٤) الوساطة ص ٩٠ .
(٥) الصبح المنبى ص ٣٤٥ .

قراءة ثانية لبيت الشاهد :-

كان المتنبى كثيرا ما يعمد إلى معانى السابقين ، فيحاول أن يصوغها صياغة خاصة به ، ولكنه يحاول ـــ فى نفس الوقت ـــ أن يبعد بها عن أصلها ويعمى المعنى على الناظر حتى لا يفطن إلى أصل المعنى ، فيظن أنه مخترعه ومبتكره .

وقد كان الشاعر من المكر والدهاء بحيث استطاع أن يفعل ذلك فى كثير من معانيه ، وكان من الزهو والخيلاء بحيث لا يقر بذلك ، بل إنه كان ينكر قراءته لديوان أبى تمام مثلا مع أنه أستقى منه كثيراً من معانيه .

وقـــد كانـــت تلك الطريقة تلجئه إلى التعمية والغموض ، والتعقيد والإبهام فيجئ البيت متنافر اللفظ لا يشف لفظه عن معناه ، ولا يسفر ظاهره عن باطنه .

وهو ما صنع الشاعر فى بيت الشاهد ، حيث فصل وقدم وأخر بلا داع إيهاماً أن وراء ذلـــك كبير معنى ، مع أن معناه لا يخلو من هذر وسخف ... وهو مأخوذ عن قول الشاعر :-

وليس على الله بمستكر أن يجمع العالم فى واحد [1]

وما كان غرضه من ذلك الإبهام والغموض إلا ليصرف السامع عن معرفة أصله ، ويبعد به عن سابقه ، ويغير ديباجته بغير لونها .... فكان كثيراً ما يفسد عليه النظم كما فسد عليه فى قوله من نفس القصيدة : -

أرض بها شرف سواها مثلها لو كان مثلك فى سواها يوجد

يريد أن يقول لو وجد مثلك فى غير هذه الأرض (منبج) لكانت تساويها فى الشرف ، قيل إن أبا تمام لما اعتذر إلى أحمد بن أبى داود ، وقال له : أنت جميع الناس ، ولا طاقة لى بغضب جمـــيع الناس قال له أحمد ما أحسن هذا فمن أين أخذته؟ قال من قول أبى نواس وليس على الله .... البيت [2] .

وقد أضاف المتنبى على معنى سابقه نفى أبوة آدم ، فهل هناك علاقة بين أبوة آدم وبـــين اجتماع الفضائل فى ممدوحه .... إلا أن يكون ذلك نوع من التجرؤ على المعانى الدينية .

---

[1] ديوان أبى نواس ٣٤٩/١ أيليا الحاوى دار الكتاب اللبنانى ورواية الديوان وليس لله بمستكبر .

[2] شرح العكبرى ٣٤٠/١ .

والواقـــع أن ديوان المتنبى ينبئ بعدم تدينه ... وديوانه حافل بالأبيات التى تنم على ضعف العقيدة أليس هو القائل : -

أى محـــــل أرتقـــى　　أى عظيم أتقـــى
وكل ما قد خلق الله　　وما لم يخلـــــق
محتقر فـــى همتـــى　　كشعرة فى مفرق [١]

إنه احتقار للخليقة بأسرها .

وقال فى مدحه لبدر بن عمار : -

تتقاصر الأفهام عن إدراكه　　مثل الذى الأفلاك فيه والدنا [٢]

فـــرفع الممدوح إلى مرتبة الألوهية قال أبو الفتح ابن جنى : لقد أفرط جداً ، لأن الذى فيه الأفلاك والدنيا علم الله [٣] .

وقال فيه أيضاً :-

لو كان علمك بالإله مقسماً　　فى الناس ما بعث الإله رسولا
لو كان لفظك فيهم ما أنزل الفرقان والتـــوراة والإنجيل [٤]

ويقول فى الغزل :-

يترشفن من فمى رشفات　　هن فيه حلاوة التوحيد [٥]

ويتناول معجزات الأنبياء بالانتقاص فيقول : -

لو كان صادف رأس عازر سيفه　　فى يوم معركة لأعيا عيســـى
أو كان لج البحر مثل يمينـــه　　ما الشق حتى جاز فيه موســى
أو كان للنيران ضوء جبينـــه　　عبدت فصار العالمون مجوسـاً [٦]

ويوقع نفسه فى مخاطرة ـــ ترديه المهالك ـــ حين يتوجه لسيف الدولة بهذا القسم :

إن كان مثلك أو هو كائـــن فبرئت حينئذ من الإسلام [٧]

---

(١) ديوانه ٣٤١/٢ .
(٢) ديوانه ص ٢٠١/٤ .
(٣) شرح العكبرى ٢٠٢/٤ .
(٤) ديوانه ٢٤٤/٣ .
(٥) ديوانه ٣١٥/١ .
(٦) ديوانه ١٩٨/٢ ، ١٩٩ .
(٧) ديوانه ١١/٤ .

وغيرهـــا الكثير والكثير ، المهم أن المتنبى فى كثير من أبياته التى سبق بها كان يحاول أن يبعد بها عن أصلها ، حتى لا يفطن إلى قصة الأخذ هذه ، فيلجأ إلى التعقيد والغموض .

والأمـــثلة على ذلك كثيرة وسوف أنقل هنا بعض مواضع الأخذ كما أشار إليها العكبرى فى شرحه .. من ذلك قوله : -

الطيب أنت إذا أصابك طيبه والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

فهو من قول ابن الجويرية :

تزين الحلى إن لبست سليمىوتحسن حين تلبسها الثيـــــاب

وكقول الآخر : -

وإذا الدرزان حسن وجـــوه كان للدر حسن وجهك زينـــا

وتزيدين أطيب الطيب طيبا أن تمسيه أين مثلك أينـــــــا [1]

ومن ذلك قول المتنبى : -

قفى تفرم الأولى من اللحظ مهجتى بثانية والمتلف الشيء غارمه

فهو من قول قطرب : -

أشتاق بالنظرة الأولى قرينتها كأننى لم أقدم قبلها نظـــــرا

ومن قول الآخر :

يا مسقماً جسمى بأول نظرة فى النظرة الأخرى إليك شفائى

وأن اختلف النقاد فى تحديد الأخذ من السابق فى هذا البيت الأخير [2]

ومن ذلك قول المتنبى :

وما حاجة الأظعان حولك فى الدجى إلى قمر ما واجد لك عادمه

وهو منقول من قول البحترى :-

أضرت بضوء البدر والبدر طالع وقامت مقام البدر لما تغيبا

ومن قول الآخر : -

إن بيتاً أنت ساكنـــــه غير محتاج إلى السرج [3]

---

(١) شرح العكبرى ٣/٢٦١ .
(٢) السابق ٣/٣٣٠ .
(٣) السابق ٣/٣٣١ .

ومنه قول المتنبى :-

فتى ألف جزء رأيه فى زمانه　　أقل جزء بعضه الرأى أجمع

ففيه نظر إلى قول الطائى :-

لو تراه يا أبا الحسن　　قمراً أو فى على غصن

كل جزء من محاسنه　　فيه أجزاء من الفتـــن [١]

وقول المتنبى :-

ولذا اسم أغطية العيون جفونها　　من أنها عمل السيوف عوامل

منقول من قول مسلم بن الوليد : -

بارزته وسلاحه خلخاله　　حتى فضفضت بكفى الخلخالا [٢]

وقول المتنبى :

قلق المليحة وهى مسك هتكها　　ومسيرها فى الليل وهى ذكاء

هو من قول امرئ القيس : -

وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

وقول الآخر : -

درة كيفما أدبرت أضاءت　　ومشم من حيثما شم فاحـــا

وهو من قول البحترى أيضاً : -

وحاولن كتمان الترحل فى الدجى　　فنم بهن المسك لما تضوعا

وكقوله أيضاً : -

وكان العبير بها واشياً　　وجرس الحلى عليها رقيباً

وقال آخر :-

وأخفوا على تلك المطايا مسيرهم　　فنم عليهم فى الظلام التنسم [٣]

وهكذا نجد أن معظم الأبيات التى أخذ المتنبى معانيها من سابقيه ، جاءت من خلال أسلوب معقد ملتو ، فى محاولة منه لإخفاء ذلك الاحتذاء عن طريق التعقيد والإبهام .

---

(١) السابق ٢٤٢/٢ .
(٢) السابق ٢٥٢/٣ .
(٣) السابق ١٣/١ .

وقد مضى الحديث عن كل هذه الأبيات كل فى موضعه ، وقد تجد فى كثير من هذه المواضع ما ذكرناه مثالاً فى مقام الغزل المتكلف ما يصلح أن يكون مثالاً للدلالة على غرابة الأمر مثلا ، وهذا لا ضير فيه ، لأن الخصوصية الأسلوبية صالحة لأن تشير إلى أكثر من معنى بشـــرط أن يكـــون ذلك مناسبا لمقامها ، بل إنى أرى أن إيرادها فى أكثر من موضع يعلل بصورة أكثر جلاء مجيئها من خلال هذا الأسلـــوب . . .

***

الخاتمـــة

حمـــداً لله وصلاة وسلاماً على سيدنا رسول الله وعلى اله وصحبه وسلم ومن تبعه بإحسان ... وبعد :-

فـــبعد هذه الجولة مع المتنبى ومعايشة ديوانه ، لاستكناه السر حول أسباب كثرة التعقيد لديه ... يمكننا الإشارة إلى هذه النقاط كأبرز نتائج البحث :-

- يحـــتل المتنبى طليعة أصحاب الشواهد الشعرية فى البلاغة العربية فمعظم كتاب البلاغة يجدون فى ديوان المتنبى ضالتهم المنشودة ، حيث يسعفهم بما يريدونه من شواهد شعرية ، فالمتنبى يمثل مقدمة الشعراء الذين أسس ـــ على شواهده ـــ عمود الشعر العربى ـــ
- حمـــل شعر المتنبى آثار الخصومة حول شخصه ، فتحامل عليه كثير من النقاد الأوائل ، وظـــل أثـــر هذا التحامل يلاحق الشاعر فى جميع العصور الأدبية ، بحيث لا يكاد يخلو كـــتاب من كتب البلاغة أو النقد من الإشارة إلى تعسف المتنبى على نحو ما أشار إليه هؤلاء النقاد .
- كثـــر التعقيد اللفظى فى ديوان المتنبى كثرة كاثرة فاقت غيره من الشعراء وإن تميزت معظـــم صوره بالوضوح والبيان ، وخلوها من التعقيد والإبهام ، وقد أشار البحث إلى كثير من شواهد التعقيد اللفظى التى حفل بها ديوان الشاعر ولم يكن لها ذكر فى كتب البلاغيين .
- جاءت بعض الشواهد التى أوردها هؤلاء العلماء مبتورة من سياقها ... فجاء حكمهم علـــيها حكمـــاً تنقصه الدقة والأناة ، لأن للسياق الأثر الأكبر فى وضوح الصورة أو غموضها .
- عمد المتنبى إلى الصنعة أحياناً ، فكان يقدم ويؤخر ويفصل على غير قياس أهل اللغة ، استجابة لحوافز نفسية ، ومراعاة لهواجس ذاتية ، فقد كان الشاعر يستخدمه طريقة من طرق الإبلاغ عما فى نفسه .
- لم يكـــن المتـــنبى بـــدعاً فى ذلك ، فقد كثر هذا اللون من التعبير فى شعر الفحول من الشعراء لأن ذلك يدل على فرط ثقة الشاعر ، واعتداده بنفسه ، واعتزازه بموهبته البيانية
- حاول البحث تلمس الهدف والغرض الذى كان وراء هذا التعقيد عند الشاعر

- ورأينا أن معظم الصور كان يختبئ وراءها غرض يهدف إليه الشاعر ، يتمثل ـــ غالباً ـــ فى غرابة المعنى والاحتشاد له ، فالمعنى الغريب يحتاج إلى تعبير غريب ، وإذا تأنق الشاعر فى فكرته فلابد أن يتأنق فى أسلوبه .
- وقـــد تجلى لنا ذلك جليا فى بواكير قصائده وفى مدحه مشاهير الأدباء وفى مقام الغزل المتكلف وفى نقله المعنى من سابقيه .

ومع كل ما تقدم من تحليل لشواهد التعقيد اللفظى فى شعر المتنبى فإن هنالك وجهة أخـــرى لابد من إثباتها وهى : " أن الدراسة الفنية والنفسية الباهرة لا تعطى للمتنبى ، وهو عبقـــرى الشعر العربى مبرراً للخروج على الصناعة اللغوية والنحوية التى أخذت من فصيح الكلام وشعر الشعراء ، وفوق ذلك : القرآن والحديث " ..

وفى ضـــوء هذا الرأى يكون الخروج عن القواعد ـــ مهما التمس له ـــ لا يجعل المعوج مستقيما ، ولا الخطأ صواباً ، ولا الليل نهاراً " .

هـــذا ... ونســـأل الله العصمة من الزلل ، والتوفيق لما هو أقرب إلى رضاه من القول والعمل .. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم ..

*****

فهرس المصادر والمراجع

١. الإبانـــة عن سرقات المتنبى العميدى ت إبراهيم البساطى دار المعارف بمصر طبعة ثانية .

٢. أسرار البلاغة ـــ عبد القاهر الجرجانى ـــ ت / محمود شاكر مطبعة المدنى بالقاهرة

٣. أمـــالى ابن الشجرى ـــ هبة الله الحسنى العلوى ـــ ت د / محمود الطناحى مكتبة الخانجى بالقاهرة .

٤. الإيضـــاح وبهامشه البغية ـــ الخطيب القزوينى ـــ ت . عبد المتعال الصعيدى ـــ مكتبة الآداب .

٥. البـــيان والتبـــين ـــ الجاحظ ـــ ت . عبد السلام هارون ـــ مكتبة الخانجى طبعة خامسة ١٤٠هـــ - ١٩٨٥م.

٦. الخصائص ـــ ابن جنى ـــ ت . محمد على النجار ـــ بدون .

٧. خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى مطبعة وهبه .

٨. الخيال الشعرى عند أبى الطيب المتنبى ـــ د / طه مصطفى أبو كريشة دار التوفيقية للطباعة بالأزهر طبعة أولى ١٣٩٨هـــ - ١٩٧٨م.

٩. دراســـات تفصـــيلية لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير - الشيخ / عبد الهادى العدل دار الطباعة الحديثة ١٣٧٨هـــ -١٩٩٨م

١٠- دلائـــل الإعجـــاز - عـــبد القاهر الجرجانى - ت / محمود شاكر - مطبعة المدنى بالقاهرة - طبعة ثالثة ١٤١٣هـــ - ١٩٩٢م.

١١ - ديوان امرئ القيس - دار صادر بيروت .

١٢- ديـــوان الفـــرزدق - ت / ســـيف الـــدين الكاتـــب وآخرون - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .

١٣- ديـــوان المتنبى - شرح الواحدى - دار صادر بيروت - طبع فى برلين ١٨٩١م ، وشـــرح العكـــبرى - دار المعرفة بيروت - لبنان - ت / مصطفى السقا وآخرون ١٤٩٧هـــ - ١٩٧٨م.

١٤ - ديوان أبى نواس .

١٥- سـر الفصاحة – ابن سنان الخفاجي ت / عبد المتعال الصعيدى – مكتبة محمد على صبيح ١٣٨٩هـ – ١٩٦١م.

١٦- شـرح أبيات المغنى – البغدادى – ت / عبد العزيز رباح وآخرون – دار المأمون للتراث – طبعة أولى ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

١٧- شرح شعر المتنبى – ابن الافليلى – ت . د / مصطفى عليان – مؤسسة الرسالة – طبعة أولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

١٨ – الصـبح المنبى عن حيثية المتنبى – الشيخ / يوسف البديعى – ت / مصطفى السقا وآخرون – طبعة دار المعارف ١٩٩٣م.

١٩ – الصـناعتين الكـتابة والشعر – أبو هلال العسكرى – ت .د / مفيد قميحة دار الكتب العلمية – بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

٢٠ – طبقات فحول الشعراء – ابن سلام الجمحى – ت / محمود شاكر – مطبعة المدنى – القاهرة .

٢١ – العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب – الشيخ / ناصف اليازجى – دار صادر بيروت .

٢٢ – العمـدة فى محاسـن الشعر وآدابه ونقده – ابن رشيق القيروانى – ت / محمد محى الدين عبد الحميد دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة – بيروت – لبنان

٢٣ – الفلك الدائر – ابن أبى الحديد – مطبوع فى ذيل كتاب المثل السائر .

٢٤ – فن البلاغة – د / عبد القادر حسين مكتبة الآداب ومطبعتها ١٩٧٧م.

٢٥ – الكامل فى اللغة والأدب – المبرد مكتبة المعارف بيروت .

٢٦ – لسان العرب ابن منظور – ت / عبد الله الكبير وآخرون – دار المعارف .

٢٧ – المـثل السائر فى أدب الكاتب والشعر – ابن الأثير – د / احمد الحوفى وآخرون – مكتبة نهضة مصر ومطبعتها طبعة أولى ١٣٧٩هـ–١٩٥٩م.

٢٨ – مراجعات فى الدرس البلاغى د / محمد أبو موسى مكتبة وهبة .

٢٩ – المعانى فى ضوء أساليب القرآن د / عبد الفتاح لاشين – دار الفكر العربى – طبعة ١٤١٩هـ– ١٩٩٩م.

٣٠ – مع المتنبى د / طه حسين – طبعة دار المعارف .

٣١ – الوساطة بين المتنبى وخصومه – القاضى الجرجانى – ت / محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون – مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ٠

٣٢ – يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر – أبو منصور الثعالبى – ت ٠د / مفيد قميحة– دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – طبعة ثانية ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣م٠

****